لغتنا العربية والسياسة

د . عبد الحي عبد الحق

العربي

الاخراج والتنفيذ : محمد أمين ابراهيم
الغــلاف للفــنان: أحمـــد اللبـــاد

التمهيد :

أن أية لغة من اللغات أو لهجة من اللهجات ، أو أية صورة من صور الكلام الذى تستعمله جماعة من الجماعات : منظمة بطبعها ، تحتوى على قواعد خاصة بها ، وأن مهمة الباحث اللغوى ، أو السياسى المخطط لأمور الحياة ، أن يصف تلك الصور الكلامية ، أو يحللها تحليلا نحويا أو صرفيا أو صوتيا أو دلاليا ، أو اجتماعيا أو قوميا . . . ومن هنا كان الاختلاف بين الواصفين لها والمحللين ، والمخططين لشئونها ، حسب الأسس التى يقيم عليها كل درسه ، والمناهج التى يتبعها ، والوسائل التى يصطفيها .

والحديث عن الأمة العربية ، أو شعوبها وثيقة الصلة بلغتها ولهجاتها فهى وعاء فكرها ، ووشاح مجدها وعزتها ، وحامل تراثها وناقلها الى المجتمعات الأخرى . . . .

ومهما يكن من أمر الأمة العربية فى يومنا هذا ، فهى من المفترض فيها أن تكون أمة واحدة ، لأنها تتحدث لغة عربية واحدة أو هكذا يجب ؟

ولما كان هذا من المسلمات التى عسر تحقيقها فى أحيان كثيرة فكذلك لم تكن أنظمتها السياسية واحدة أو متوحدة ، فهى : ملكية وسلطانية ومشيخية وجمهورية ، وهذه نفسها تتنوع الى عسكرية رأسمالية وعسكرية ماركسية أو اشتراكية أو مدنية ماركسية ، أو جمهورية الأحزاب المصرحة المحددة العدد ، أو ديمقراطية الحزب الواحد ، وأحيانا تتراءى دولة ديمقراطية مفتوحة الأحزاب والعدد والأفكار . . .

وأمام هذه التشكيلة المزركشة من الأنظمة السياسية والفكرية والحزبية فى أمة واحدة ، لا يتوقع وجود سياسة واحدة لتخطيط اللغة ولهجاتها وثقافاتها .

لقد عرفت اللغة العربية خلال تاريخها الطويل ، منذ أن كانت القبيلة وحدة أساسية فى المجتمع العربى ، تتقارب لهجاتها وتتلاقى ألسنة أبنائها رغم الحروب المستعرة التى دونتها المدونات التاريخية ، وما فيها من مبالغات وتهاويل يرفضها العقل الجمعى المتحضر . . . فلم يصل إلينا ما يقال الآن عنها باللهجات العامية الحديثة المتنافرة فى كثير من الخصائص الا بعد مستهل القرن التاسع عشر الميلادى . . . وقد قسمها المستشرقون

الى خمس مجموعات لهجية تشتمل كل مجموعة منها على لهجات متقاربة فى أصواتها وأوزانها وأساليبها وقواعدها وهى :[1]

١ ـ مجموعة اللهجات الحجازية النجدية ، وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن .
٢ ـ مجموعة اللهجات السورية : وتشمل اللهجات العربية فى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن .
٣ ـ مجموعة اللهجات العراقية .
٤ ـ مجموعة اللهجات المصرية .
٥ ـ مجموعة اللهجات المغربية .

وهذه المجموعات اللهجية تفصح عن فكر مقسمها ونزعته التجزيئية ، وهى تشير من طرف خفى الى الزعم المسيطر على أذهان كثير من الغربيين ، من أن اللغة العربية هى لغات متنوعة ، وفى ضوء هذه النظرية ، يسهل التقسيم الاجتماعى والثقافى ، ومن جرائه كان المخطط الاستعمارى الذى هيمن على الشرق الأوسط وشمال افريقيا منذ أخريات القرن التاسع عشر ، قد استفاد كثيرا من دراسات المستشرقين الذين عنوا بالمنطقة خلال القرنين السابقين .

القسم الأول

مصداقية

القرار السياسى اللغوى

فى العالم العربى

١ - الحروب فى العالم العربى، و آثارها على اللغة :

لم تصب أمة من الأمم المعاصرة بويلات الحروب ، والخلافات السياسية والاجتماعية ، كالأمة العربية ، من خليجها الى محيطها ، ومن متوسطها الى قرنها الافريقى . . . والحروب والغزوات ـ كما هى معلومة ـ من أشد العوامل تأثيرا فى الصراع اللغوى . . . .

١ ـ فهناك الحروب العربية الاسرائيلية منذ ١٩٤٨م وما تزال ، وهى تفرز فى كل مرة نتيجة للاحتكاك المباشر ، تأثيرات لغوية وأسلوبية ومفردات فى مجال المصطلحات ، وأسماء الأشياء الحسية والمعنوية .

وقد تشابكت الثقافتان العربية والعبرية منذ القدم ، وما تزالان تشرئبان فى الأردن ومصر ولبنان وسوريا ، رغم التقاتل السياسى والعسكرى ، وغالبا ما يمثل الشعب الفلسطينى وسيطا اضطراريا ، بهجراته الممزقة فى تلك المناطق ، وغيرها من البلدان العربية ، بالاضافة الى حركة المد والجزر فى مستويات التدفق العفوى لمناطق التلامس البشرى فى الأراضى المحتلة .

ولعله من العسير تجاهل ذلك الواقع الذى فرضته تلك الحروب عن طريق شعوبها ، وكتائب قوات المراقبة الدولية لخطوط الهدنة طيلة أربعين عاما أو يكاد ، من عشرات الأقطار والشعوب واللغات والعادات العقائد . . وعسى أن يتفرغ بعض الباحثين لرصد التفاعل اللغوى الذى نشأ ونما وترعرع فى لبنان منذ ١٩٧٦ م وما أوجد من عبارات ومفردات ومصطلحات ، وكنايات واستعارات وتوريات ، ربما تفوق ما رصدته كتب الألفاظ والتعبير فى تاريخ العربية منذ العصر العباسى الذى بدأ فيه تقعيد اللغة ورصد صورها . لقد أصبحت تعابير المليشيات ومصطلحاتهم لهجات خاصة بكل منهم ، وهى بالطبع ستحسب على واقع اللغة العربية وتطورها التصاعدى أو الانحدارى . . .

ان قاموس المفاوضات السياسية والعسكرية ، المباشرة وغير المباشرة بين الدول العربية من ناحية ، واسرائيل وأمريكا وأوروبا من ناحية أخرى ، قد ساهمت فى

تدجين درجة جموح اللغة العربية التى ما تزال تستعصى فى مجال المصطلحات العلمية ـ كما يردده البعض . . . ولكن ما يخشاه الراصد لحركات التغير اللغوى فى المنطقة ، أن تؤدى التمزقات فى العالم العربى الى ايجاد لغة غير عربية فى لبنان الشرقية ، والى لغة عربية عبرية فى جنوب لبنان والضفة وغزة والجولان ، اذا ما بقيت الحال على ما هى عليه ، أو تطورات تطورا عكسيا ، اذ أن الاعلام العربى بمختلف مثيراته السياسية ، لم يضع ذلك الاحتمال فى حسبانه ، وبالتالى فى برامجه ، وهو أمر يحسبه الحكام والسياسيون هينا ، ولكنه خطير لو كانوا يعلمون ؟؟

٢ ـ **وهناك الحرب العراقية الايرانية** : التى ما تزال أوارها تشتعل يوما بعد يوم ، فبقطع النظر عن التداخل اللغوى الطبيعى بين البلدين المسلمين منذ قرون خلت ، وما يزال كذلك ، فان آلاف الأسرى من الجانبين وما صحبوه معهم من ثقافات ولغات ولهجات بالاضافة الى الأخذ والعطاء غير الارادى من خلال النصر والهزيمة . . كله يدخل فى اطار الغزو اللغوى غير المباشر ، وليس هو خاصا بالعراق . . . ولكنه عطاء يتدفق الى سواه عاجلا أو آجلا . .

ومن هنا فان اللغة العسكرية التى تستخدم وتدرس بعد انتهاء الحرب التى ستخرج عشرات الخبراء فى مجالاتهم ، ستكون لغة جديدة فى روحها وايقاعها . . انها حرب تلاقت فيها خلاصة العوامل التدميرية من : عراقية وايرانية وعربية وروسية وأمريكية واسرائيلية وفرنسية ، وهى فى وجهها الآخر لغات وثقافات .

٣ ـ **الصومال واثيوبيا** : ورغم أن لغات الدولتين ليست عربية ، الا أن الصومال بحسبانها قطرا عربيا من الوجهة السياسية ، قد تضررت من تلك الحرب أكثر من جارتها ، وأصيبت أوصالها اللغوية بالتمزق ، حيث استقبلت عشرات اللهجات واللغات من قبل النازحين واللاجئين والأسرى فى كلا الجانبين . . . . وأثر ذلك تأثيرا مباشرا على حركة تعريب التعليم والمجتمع ، اذ أن ما ينفق فى ميدان الحرب كان من الممكن أن يوظف فى مجال تحسين برامج تعليم اللغة العربية ، رغم الاتجاه المناهض للاسلام والثقافة العربية ؟؟

وربما اذا نظرنا الى الحرب الصومالية الاثيوبية نجد أنفسنا أمام صورة من صور التخبط الفكرى فى العالم الثالث ، ولا سيما العربى منه ، فقد سبقت الصومال جارتها اثيوبيا الى اعتناق الماركسية ، ومحاربة المسلمين المتمسكين باسلامهم ، وحاربت

العربية بطريق غير مباشر ، حينما استبدلت حروف اللغة الصومالية العربية ، بحروف لاتينية ، ثم ظهرت الماركسية فى اثيوبيا بوصول منجستو الى الرئاسة ، واشتعلت الحرب فى أوجادين ثم توسعت لتدخل الصومال نفسها ، وترجحت كفة اثيوبيا بفضل الدعم الماركسى الروسى ، والتعاطف الغربى المسيحى . وهنا وجدت الصومال نفسها وحيدة ، فاتجهت الى العرب ـ وفيهم ماركسيون وغير ماركسيين ـ علهم يقيلوا عثارها . . . وكان أن تراجعت الماركسية فيها ، وان لم تتراجع الحكومة عنها ؟؟

ولم تكن الغاية من هذا الحرب ، انتزاع قطعة أرض أو استرجاعها وانما كان من أجل تدعيم المد الثقافى الأمهرى المسيحى الماركسى ، فى مقابل همجية ثقافية غير منتمية ، ولا تريد أن تنتمى صراحة ؟ اذ أن الارتداد الى اللغات المحلية القديمة ، والثقافات ذات العلائق الوثنية لا يمكن لها أن تؤسس شخصية ثقافية تتجاسر على لغة لها ثقافتها وتاريخها وفكرها وتوجهها الحضارى منذ مئات السنين ، مهما كان الرأى فيها .

وهكذا حوصرت الصومالية فى رقعتها الداخلية ، دعك من منطقة الأجادين ولغتها الرئيسية : « الأورومية » ، فقد تأكد أن الثورة الثقافية الماركسية الصومالية التى بدأت على نطاق واسع فى السبعينات أخذت فى انحسارها بالكامل ، وأصبحت نسبة الأمية تتزايد يوما بعد يوم . . . وهكذا لم تستفد الصومال من حربها مع اثيوبيا ، ولا من حربها للعربية والاسلام .

٤ ـ واذا تجاوزنا الحروب التى تكون احدى أطرافها دول غير عربية وعمدنا الى حروب العرب الأهلية أو الداخلية نجد :

أ ـ جنوب السودان : ـ

يعتبر جنوب السودان ، من أكثر المناطق تمثيلا للصراع السياسى والاجتماعى واللغوى والثقافى ، ومهما يكن من أسباب ، فان الواقع يؤكد أن هناك اختلافا بينا فى اللغة والثقافة والدين يزداد عمقا كلما توغلنا بعيدا عن جنوب : دارفور وكردفان والنيل الأزرق ، فهناك مجموعات اللغات النيلية وامتدادات اللغات الافريقية المجاورة ، وفى ذلك الشريط أيضا ألوان من الثقافات الافريقية الزنجية ، وغالبية وثنية ، وجيوب اسلامية ومسيحية متناثرة بين ذلك الكم الهائل من الواقع البدائى المتخلف .

وقد استفاد الاستعماريون والماركسيون ، وأنصار الانفصال من ذلك كله ، ففذوا الصراع ، وما يزالون ، بشعارات واتجاهات متعددة ومتنافرة ولكنها فى نهاية الأمر تصب فى دائرة الحرب اللغوية الثقافية ، وهى حرب لن تحسم بالحلول التوفيقية ، وابرام الاتفاقات ذات النكهة الكنسية عن طريق أطراف خارجية وداخلية هدفها ترك الحال على ما هى عليها من الخلاف والتباغض ، وهكذا تتجدد الحرب والقتال بين الفينة والأخرى بأحدث الأساليب وأطرف الأفكار وأغرب الشعارات .(٢)

ب ـ الحرب المغربية :

وهى نتيجة طبيعية لتوجه ثقافى مغاير عن الثقافة المغربية فبين استقلال المغرب من فرنسا ، وخروج اسبانيا من الصحراء نحو عقد من الزمان ، كان فيه وفيما سبقه من عهد طويل تكونت الثقافة الصحراوية بمعزل عن المغرب وموريتانيا والجزائر . . . ويقدر ما تختلف الثقافة واللغة الى حد ما فى مليلة وسبيته عن المغرب ، وبما اعترفت به المغرب لموريتانيا من ذاتية متميزة ، بعد سنوات من اعتراضها على دخول جامعة الدول العربية ، هو نفس الشيء بالنسبة للصحراء . . . وما تزال المنطقة شوكة فى جسم المملكة المغربية ، كما هو الحال فى جنوب السودان ، وشمال العراق ، ومناطق البربر فى دول شمال افريقية قاطبة .

ومن هنا فان الاختلاف اللغوى لا يمكن تجاوزه فى المشاكل السياسية والحدودية . .

جـ ـ الجزائـر :

ذلك القطر العربى الذى عانى من سطوة الاستعمار الفرنسى لغويا وثقافيا ودينيا ، وقد بدأت حكومته ، فى عهدى بومدين والشاذلى بن جديد ، تتحسس طريقها نحو الخلاص . . . وقد جوبهت بصعاب داخلية بعد الاستقلال فى مناطق القبائل البربرية ، وهى الجماعات التى تحن الى لغاتها وثقافاتها الاجتماعية التى ما تزال تتمسك بها فى أكثر من مجال .

د ـ اليمـن :

عرفت فى التاريخ باليمن السعيد ، وبعراقتها الحضارية والسياسية وقد تجزأت قبل الهجمة الاستعمارية ، ثم أكدت الامبراطورية البريطانية ذلك ، حينما سيطرت على الجزء

الجنوبي ، ليكتمل الطابع الانجليزي على باب المندب والبحر الأحمر والقرن الافريقي ، وصولا الى المحيط الهندي الذي تجوبه السفن والبحرية الانجلوسكسونية . . . وما يزال التجزيئي والانفصال مدعما بالحروب المتجددة ، والاختلاف العقائدي بين الدولتين وقد تدخلت عدة دول ، عربية وغير عربية بالتساند المباشر وغير المباشر لكلا الطرفين ، الأمر الذي وثق فيهما التباعد السياسي والثقافي والفكري فهناك الاسلام والمذهب الزيدي والتراث العربي والسياسة المحافظة ، في مقابل التوجه اليساري والفكر الماركسي الصريح ، وثقافته غير الدينية . . .

ويلتقي الطرفان معا في الاعتماد على القبيلة ، وخير مثال على ذلك حرب اليمن أيام السلال ، والحرب الأخيرة في اليمن الجنوبية .

وربما لم تتضح للكثيرين حقيقة الصراع اللغوي والثقافي بين الجنوب والشمال ، رغم تحدثهما العربية منذ فجر تاريخهما ، فانه مع ذلك قد أشرأب الانفصام بينهما من بدايات التكوين الثقافي والحضاري الحديث ، المرتكز على اللغة الانجليزية . بمناهجها التربوية . . . وحينما كانت عدن وحضرموت والمكلا وغيرها تتمتع بالتعليم النظامي ، كانت صنعاء والحديدة وتعز تغط في سبات عميق طبقا لتوجيهات ورؤى أمام اليمن الشمالي قبل النظام الجمهوري . . . وكان لهذا الاختلاف التعليمي والثقافي والحضاري أثره الكبير في تمايز القطرين ، وفي نشوء الحروب بينهما . ومهما كان ، ويكون ، من محاولات الجمع والدمج والتوحيد ، التي لم تتجاوز معنى المحاولات ـ فالجميع يتحدثون في الاطار العربي بلغة عربية ولكنهم يفكرون بأوعية عقائدية مختلفة اللغات والثقافة .

والسؤال : أيستطيع الباحث العربي تعريب العبارات والمفردات والمصطلحات التي أفرزتها تلك الحروب من داخلية وخارجية ؟؟

٣- الأوضاع اللغوية فى العالم العربى :

تبدو اللغة العربية فى هذه الأيام من أكثر لغات الحضارة الانسانية حيرة بين الولاء للماضى العقدى والثقافى من جهة وبين الالتزام بمتطلبات الحضارة الحديثة وما فيها من عقابيل ربما تؤثر على شخصيتها وتاريخها والمطلوب هو السعى نحو توازن لغوى فعال ، اذ أن المعاصرة والتراث فى ذاتها ليسا بالمشكلة التعددية الثقافية فى الوطن العربى نتيجة خضوعها لفترات الظلم الاستعمارى بأنظمته المختلفة ، وهى أنظمة تقدس لغاتها وعراقتها الثقافية ، ولن تستطيع البلدان العربية بعد فكاكها من ذلك الأسر السياسى والحضارى ، أن تنشىء ، أو تحيى ، ثقافتها الخاصة بها الابعد ان تتحمل عبء أنشاء الثقافة المشتركة للوطن العربى ، وهى مهمة مزدوجة اذ أن على اللغة العربية أن تنشىء نفسها وأن تبنيها من الداخل ، وعليها أيضا أن تكون بوتقة التفاعل الثقافى المنشود فى المجتمع العربى كله .(٣)

ان أول ظواهر المشكلة اللغوية ، هى عدم وضوح الحدود الدقيقة للعربية الفصحى الحديثة ، ومستوياتها التى تتقبلها الأطر التعليمية الفاعلة ، والأجهزة الثقافية المؤثرة ، من جرائد واذاعة وقادة سياسة وأساتذة ، محافظين ودعاة تجديد وتحديث .

ومن جوانب المشكلة اللغوية :(٤)

١ - **الوجه العملى :** أ - فمن الصعب أن تعتبر العربية الفصحى لغة عملية ، لأن العربية لغة متفاوتة بين البلاد العربية ، وتحمل فى أساليبها خطورة تفسيرات متعددة ، مما لا يصح أن يوجد فى لغة من لغات المداولات المالية والتجارية ، فأساليب العقود والتوثيق تختلف من بلد لآخر ، على المستوى الحكومى والشعبى .

ب - وهناك شبه ازدواجية بين ممارسة التعليم العلمى باللغة العربية وأحيانا الكتابة العلمية الميسرة ، وبين ممارسة التفكير العلمى والبحث العلمى التى تتم غالبا باللغات الأجنبية .

جـ - وهناك مسألة المصطلحات العلمية حيث تشتد الحاجة يوميا الى صياغة مصطلحات مناسبة ، ولا سيما مع توسع الاستعمالات العلمية للغة العربية .

٢ - **الوجه التربوى** : فقد ازدادت نسبة الأمية اللغوية والسبب يعود فى ذلك الى أن العربية غير مخدومة تربويا على جميع المستويات :

أ - فليس هناك معجم عصرى للغة العربية من مختصر أو متوسط أو مطول ، كما هو الشأن فى معجم لاروس الفرنسى ، أو اكسفورد الانجليزى .

ب - وليس هناك معجم تاريخى يستطيع أن يستعين به طالب اللغة ومتذوق النصوص ، والدارس ، على معرفة عمر المفردات العربية ، وكيفية استعمالها فى القديم والحديث ، والتطورات التى طرأت على معانيها أو ايحاءاتها ، بحيث يتجنب المبتدىء اسقاط مفهومات حديثة على مفردات مستعملة فى نصوص قديمة أو العكس .

جـ - وليست هناك دراسات صوتية متقدمة حتى الآن ، لتذليل صعاب النطق لأبناء العربية نفسها ، ناهيك عن غير الناطقين بها أساسا .

د - وليست هناك دراسات كافية حول شيوع المفردات ونسبة شيوعها .

هـ - كما ليست هناك دراسات كافية حول تراكيب الجملة العربية ولا حول أساليب التعبير سوى الدراسات النحوية التقليدية ، وبعض المحاولات الحديثة المتأثرة بعلم اللغة المقارن .

ان ما تعانيه عربية اليوم ، هو أقسى ما عانته الحياة العربية فى أى من وجوهها الكثيرة المتباينة على طول التاريخ . . . وقد كانت العربية فى أحلك القرون التى غرق فيها العرب فى توافه الثقافة واستبدت بهم الاشكال ، وانصرفوا عن الجوهر ، ظلت تثير عندهم اصالتهم بما حفظت لهم من روائع الفكر والتجارب الانسانية والسلوك الرفيع . . .

وليس غريبا أن تكون الحركة اللغوية فى العصر الحديث ، فى مقدمة عوامل النهضة ، وأن يكون النتاج الأدبى بهذه اللغة هو زاد هذه النهضة ومثيرها . . . فان أدب الأدباء وشعر الشعراء فى بداية النهضة ينثال أناشيد على ألسنة الجيل الذى أراد أن يكون جيل النقلة ، من عالم الجمود والتأخر الى عالم الحركة والتقدم .

ان التأكيد على ضرورة الحفاظ والتمسك بالعربية ، لا يعنى رفضا للغات الانسانية الأخرى ، اذ أن المطلوب من اللغة الأجنبية مادتها العلمية . قبل وشاحها الحضارى ، وهنا يجب أن نحصل على المادة العلمية بأوعيتنا ، وأن نعبر عنها بألسنتنا ، حتى نتيح لها

أكبر قدر من المحافظة الشعورية والتلاؤم النفسى ، ثم بعد ذلك فلنأخذ ما يتوافق مع نسيج حياتنا ورفع مجتمعنا .

ويلاحظ أن الفكر الذى يمارسه العالم العربى اليوم ، ليس من صنعه ولا هو ملك له ، فى اطار من تراثه ، يضاف الى ذلك ظاهرة الاقليمية التى أصيب بها العالم العربى بعد تخلصه من المستعمر ، فبدت الحساسيات القومية التى وقفت عائقا أمام نمو فكر عربى متسق ، الأمر الذى ساعد على هبوط مستوى الرسوخ والخلط بين الفكر العربى والمذهب السياسى بينما الفكر بطبيعته متسع ومتنوع ومتعدد الصور والوجوه والاشكال والألوان داخل اللغة . . . وهو ما يساعد على اثراء اللغة وتقويتها وتنميتها . . . . كما أن اللغة تصل من خلال الخصوبة الفكرية الى مستوى من المقدرة والمرونة يؤهلها لحمل الأعباء المختلفة .

حماية اللغـــات :

فى المؤتمر الأول لرؤساء الدول الناطقة بالفرنسية ليتدارسوا اللغة الفرنسية ، وليضعوا الخطط لبناء هذا المستقبل ، ولمواجهة اللغة الانجليزية الزاحفة ، فى ميدان العلم والتقنية على الأخص ، قال متران رئيس جمهورية فرنسا بلهجة استنكار وسخرية : هل سيكون علينا أن نعلم « الحاسوب » الفرنسى ، اللغة الانجليزية حتى يستطيع أن يختزن معلوماتنا وتقنياتنا ويسعفنا فى بناء مستقبلنا(٥) .

وكان ديجول قبل ربع قرن مضى قد رغب فى عقد ندوة للدول الناطقة بالفرنسية ، وانشاء منظمة الدول « الفرانكوفونية » ، وهى المنظمة التى كان يدعو لها أيضا الرئيس السنغالى السابق سيدارسنجور ، وقد نجح ميتران الاشتراكى فيما أخفق فيه صاحب الجمهورية الخامسة ، اذا استطاع أن يحل العقبة الخاصة بمقاطعة كويبك الكندية الناطقة بالفرنسية ، فدعت فرنسا كندا ممثلة للدولة الفيدرالية ، باعتبار أن جزءا منها يتكلم الفرنسية ، وهو تلك المقاطعة التى اطلق عليها ديجول فى الستينات « كويبك الفرنسية » ، فأحدث أزمة سياسية بين فرنسا وكندا .

ورغم ما يمثله الحل الميترانى من تنازل سياسى بالمقارنة مع موقف ديجول السابق ، فانه قد احتوى على كسب ثقافى ولغوى لاشك فيه . . وقد تحقق من انعقاد المؤتمر هدفه الاساسى ، وهو انقاذ اللغة الفرنسية والدفاع عنها ضد الغزو اللغوى الانجليزى الذى تفرضه القوة العلمية والسياسية التى تتمتع بها الولايات المتحدة الامريكية ، والمملكة المتحدة البريطانية بمنظمتها « الكمنولث » ، وكذا الانتشار اللغوى الاسبانى الذى يقدر له

الاوضاع اللغوية والثقافية الخاصة وغيرها من البلدان الاسلامية كجيبوتى والصومال والباكستان .

فالصومال على سبيل المثال نموذج لشعوب الأمة العربية والاسلامية التى تتعرض فى كل يوم لشتى أنواع السلب الثقافى والحضارى ، ويذوب أبناؤها فى الغرب والشرق ذوبانا ، وهى من الاقطار التى اختارت لنفسها أن تنضم الى جامعة الدول العربية لاستكمال مقومات عروبتها بتعميم تعليم اللغة العربية ، ولكنها تواجه اخطارا كبيرة من الغزو الثقافى المتنوع الاغراض والاساليب ، وينبغى فى هذه الحالة أو تلك أن تواجه هذه المشاكل بجدية وبتمويل يتناسب مع حجمها .

- وفى اجابة لمدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، على سؤال نصه : كيف يبدو لكم دور الجهاز الدولى لتنمية الثقافة العربية الاسلامية فى مواجهة الحملات التنصيرية المكثفة فى افريقيا ، قال :(٦) - المواجهة صعبة جدا ، لأننا نحن لا نملك لا الوسائل ولا التنظيم التى تمتلكها هذه الجهات . . . ان لهذه الجهات ادارة مركزية واحدة ، الأمر الذى لا اجتهادات من المسلمين ومن الحكومات الاسلامية ، ومن التنظيمات الاسلامية فى هذا الصدد . . . فليس هناك تنظيم اسلامى يقابل التنظيم البابوى ، أو تنظيم الاتحاد العالمى للكنائس ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان لهذه الجهات موارد ثابتة وكوادر ثقافية ومهنية وتنظيمات ومؤهلات ، وأيضا شبكة ضخمة من الاعلام . . .

ومثل هذا الكلام من المسئول الأول للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، يضع الأمة العربية وقادتها أمام اتهام صارخ ومؤلم ، اذ أن الامكانات العربية فى جملتها تفوق ما لدى الأجهزة والمؤسسات الأخرى ، ولكن السؤال حول كيفية التنسيق والاستغلال الأمثل . . فكما يشير مدير المنظمة من أنهم قاموا بالمسح الثقافى للبلاد العربية الاسلامية وخاصة فى افريقيا واصدار كتب لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها على أحدث المناهج التربوية ، ووضع قاموس فى اللغة العربية عربى - عربى ، لغير الناطقين بلغة الضاد ، وهو قاموس جديد من نوعه يمتاز بكونه سياقيا موسوعيا بالاضافة الى تكوين لجان وطنية للعمل الميدانى فى معظم البلاد العربية فان العائد لم يكن بالقدر الذى توخاه المخططون له . . . وكان من نتيجة ذلك تفشى اللغات واللهجات النيلية مرة أخرى فى جنوب السودان مدعومة بالدراسات التبشيرية الكنسية التى فرغت لها باحثين من علماء اللغة والانثرلولوجيا والتاريخ والأديان . . . وكأنما معهد الخرطوم الدولى لتعليم اللغة للناطقين بغيرها من اللغات ، لم يعتبر جنوب السودان جزءا من دولة عربية اسلامية ؟؟

وهكذا الحال فى الصومال وجيبوتى ، وسواهما من المناطق الساخنة بالصراع اللغوى والثقافى . . . .

دول مجلس « التعاون

ربما كان هناك تناسب بين خلجات النفس وخلجان الماء ، فانسياب الماء فى تعرجاته وتموجاته ، كمسارب النفس الانسانية فى اندفاعاتها وتراجعها . . . وهكذا كان أمر الخليج الذى وصف آنا بالفارسى يوم أن هيمن الفرس عليه قبل الاستيعاب الاسلامى له . . . ثم بدأ المؤرخون والجغرافيون يطلقون عليه : الخليج العربى ، بديلا عن الفارسى ، لاسيما بعد أن انحسرت الروح الاسلامية من كلا المدين : الفارس والعربى . ولا ينكر أحد ما لتلك الدوافع فى الاطلاق من تراث وميراث حضارى وثقافى ولغوى وبشرى قد انفسح له المجال نحو التوسع والتعمق فى كلا الجانبين .

لقد كانت منطقة الخليج حتى عهد قريب منطقة مخلخلة السكان ، كما يقول الجغرافيون ، وقد عرف سكانها شواطىء المحيط الهندى والبحر الأحمر الى جانب شواطىء الخليج نفسه ، وكان ملتقى لشعوب بعض الاقطار ، واشتهر سكانه باستخراج اللؤلؤ الذى مهروا فيه الى جانب التجارة البحرية ، وصيد الأسماك . . . واستقبلت المنطقة قبل الاستحواذ البترولى نحو ١,٢٤٥٧٧١ نسمة معظمهم من خارج المنطقة العربية ، ومن غير الاقطار الاسلامية . . ومازال هذا التكاثر غير العربى الوافد ، يشكل ضغوطا مؤثرة على مجتمعات المنطقة فى مختلف المجالات .

أما أهم مصادر الهجرة الوافدة الى المنطقة منذ القديم ، وماتزال فهى : ايران وباكستان والهند واندونيسيا والفلبين .[١] والجماعات الاوروبية التى استدعت وجودها بقايا الارتباطات الاستعمارية ومتطلبات صناعة البترول . ونتيجة لذلك فقد دخلت : الفارسية والبلوشية والاردية والانجليزية والفرنسية والفلبينية والاندونيسية والماليزية وغيرها من لغات ولهجات .

كما عرفت منطقة الخليج فى تاريخها الطويل ، بتميزها الصوتى واللهجى نتيجة للتداخل والتمازج البشرى الواسع الذى ساهمت فيه الموجات البشرية عبر حلقات التاريخ المختلفة . . . وأصبحت البيئة اللغوية انعكاسا صادقا لجغرافية المنطقة بأشكالها المتعددة . ولعل ما أشار اليه سيبويه منذ القرن الثانى الهجرى بالأصوات الفرعية فى اللغة العربية واللهجات المذمومة أو المستقبحة ، من عجعجة وكشكشة وطمطمانية وسواها ماتزال ماثلة

فى لهجات الخليج ، رغم التنوع الثقافى الـذى تعاور المنطقة خـلال العهد الاسـلامى والعصور الاستعمارية القديمة والحديثة . . .

وتبرز المشكلة اللغوية فى الخليج أو دول مجلس التعاون فى ثلاث مستويات :ـ

(١) الطفل الخليجى (٢) اللهجة العامية (٣) العربية الفصحى

أولا : الطفل الخليجى :

لم ترو لنا السيرة النبوية قصة رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتربيته فى بنى سعد من قبل التسلية أو الاعلام بالحدث التاريخى فقط لنشأته عليه السـلام . . . وانما كانت العبرة من ذلك اعطاء صورة من التنشئة الاجتماعية والنفسية واللغوية على أسس تجريبية سليمة يراعى فيها قانون البيئة قبل كل شىء آخر . وقد كان الحال كذلك حتى القرون الاسلامية الأولى حيث التنشئة البدوية التى تستقى منها اللغة والعادات الاجتماعية الأصيلة .

ولذا كان حال الوليد بن عبد الملك الذى نشىء فى البلاط بين الخدم والحشم ، معوج اللسان ، ركيك العبارة ، واضح اللحن . . . وقد فطن الى ذلك والده ذو الفصاحة والبيان ، فكان قوله : أضر بالوليد حبنا له وما ذلك الا لتحسره على ابنه الذى سيكون أميرا للمسلمين والعرب ، فكيف يستقيم ذلك مع اعوجاج اللسان ؟؟ وقد كان عبد الملك من بين ثلاثة قالوا فيهم : انهم لم يلحنوا فى جد ولا هزل ، وهو القائـل : لقد شيبتنى المنابر ، حيث كان حذرا يقظا فى استعماله اللغوى . . . وهكذا كان المؤدبون لأبناء الأمراء وأعيان الدولة وعامة الشعب فى القديم ، من أشهر علماء اللغة والنحو والأدب ، وهم الذين يرجع الدارسون اليوم الى مؤلفاتهم وآرائهم .

لقد فسدت ألسنة المنطقة من يوم أن أصبح فى معظم بيـوت ذوى الاصول العـربية مربيات وخدم من عناصر بعيدة كل البعد عن اللغة العربية الامر الذى أدى بجماعات العلماء واللغويين فى قرون ماضية الى قيادة حركات ضد اللحن والأخطاء اللغوية ، وهى الحركة التى عرفت فى تاريخ اللغة العربية بحركة تنقية اللغة ، ومن جرائها تعددت الآراء والمذاهب والشروح والحواشى والتقارير فى فروع اللغة المختلفة ، مما جعل الاستعمـال اللغوى فى حد ذاته عسيرا ، بدلا من تيسيره وتقريبه الى الافهام . . . وأضحى النحاة يستظهرون القواعد والافتراضات دون أن يقوموا ألسنة الناس ، بل كم من نحوى ضليع

حتى عهد قريب لا يستطيع ارتجال حديث فصيح سليم من التأتأت وحوشى الألفاظ ومعاظلة الكلام . . . ولم يفلح فى ذلك كله محاولات ابن مضاء القرطبى ومن نحا نحوه ، فى تنقية النحو من صعوباته وعقابيله.

لقد نشأ الطفل الخليجى المعاصر ، ولاسيما الذى بزغ فجره بعد عام ١٩٧٣ م بين عالم غريب على مستوى البيت ، والشارع والسوق ، والمدرسة ، ففى كل مرحلة تختلف اللغة العربية مفردات وتراكيب ودلالات . . . حتى اذا ما تساءل أبو العلاء المعرى عن بكاء الطفل ساعة مولده ، لا يدرى أكان البكاء لخوف من المستقبل وما فيه من شقاء فى الحياة أم على اللغة . . اذا أن ـ الطفل هنا فى واقع الامر يتوجع من المتاهة اللغوية التى تصطك بها اسماعه منذ الرضاعة ، فهى خليط لسانى من ارجاء العالم كله .

وحينما وقف الباحثون حيارى حول نشأة اللغة عند الطفل ، لم يخطر على بالهم مثل هذا الواقع اللسانى الذى يعم دول مجلس التعاون الخليجى منذ السبعينات . . . وما كانت اشارتنا الى هذه المسألة ، بالاولى ، فى مجال التشخيص الاجتماعى واللغوى فى المنطقة . . فأبناؤها أول من نبه الى خطورة الاكتساح اللغوى الآسيوى ، فى شكل مربيات وممرضات وعمال ، وقد عزا البعض تكاثر الجنسيات الى جانب اقتصادى بحت ، حيث أن المقابل المالى لاستقدام واستخدام تلك الجماعات يقل كثيرا عن أمثالهم من ابناء الأقطار الناطقة بالعربية . .

ومن جراء هذا المزيج اللغوى النادر المتنافر ، تبرز عدة أمور :

١ ـ أن المشكلة بالنسبة للطفل ليست فى امكانية تعلمه للغة العربية المنظمة فيما بعد ، وانما هى كامنة فى التشويش اللغوى المضطرب خلال تكوينه اللغوى منذ نعومة اظافره ، وليونة حبائله الصوتية وصفاء خياله وتصوره ، اذ يصطحب الطفل معه ذلك الدخيل المتنافر بحسبانه جزءا من لغة مجتمعه ، ويستخدمه فى تعاطيه اليومى فى المجتمع والمدرسة . . وربما يذهب به الاعتقاد الى أنه من العربى الفصيح ، أو على أقل احتمال انه عامية عربية من الممكن أن تفصح .

٢ ـ ان التداخل اللغوى بين الكبار ، ينتج عنه دخيل فى الالفاظ ، أو فى بعض التراكيب والعبارات فقط ، بخلاف التشويش اللغوى المضطرب الذى يمسخ أصل اللغة .

٣ ـ ان اللغة عند الطفل فى مجتمع كمجتمع الخليج ، تنمو مصاحبة للأخطاء الصوتية ، والتداخل اللغوى والتناقض الدلالى والتنافر الخيالى . . فيصحب الطفل معه ذلك

التراكم اللغوى حتى مرحلة الدراسة ، فاذا هو يتعامل مع العربية بحسبانها لغة أجنبية ، وليست لغة أمة . .

٤ ـ ان الخطأ الكبير يكمن فى الكبار الذين يقلدون غير الناطقين بالعربية فى اخطائهم ، ويسايرونهم بغية الافهام والتعامل اليومى .

٥ ـ لقد أصبح وجود المربيات ظاهرة اجتماعية تدل على الحالة الاقتصادية والطبقية ، ومحاولة الفكاك عنها تؤدى الى اصطدام مع المرأة التى كان من واجبها أن تفطن الى فداحة الخسارة التى لن يعوضها أى عائد آخر . . . وهذه هى قضية اليوم على مسرح الحياة فى دول مجلس التعاون بين المتعلمين والمتعلمات على حد سواء .

اللهجة العاميـــة :

والواقع أن اللهجة فى منطقة الخليج لهجتان ، بل فى كـل بلد منها لهجـة عربيـة عامية ، ولهجة اخرى بترولية من بقايا الوافد اللغوى المشوش المضطرب ، وهذه اللهجة الثانية هى محل الخطورة أو الخطورة نفسها ، فهى تتحرك بايقاع سريع لتلتهم العربيـة العامية التى يفترض فيها أن ترتفع الى مستوى العامية المتفصحة عن طريق أجهزة الاعلام والتعليم . . .

ومما لاشك به هذه اللهجة البترولية ، أنها لا تلتزم بقاعدة أو نظام ، فهى وسيلة لحظية للافهام الوقتى ، يلجأ المتحدث بها الى مختارات منها حسب الموقف والضرورة ، وهى تخلو تماما من الأفعال وأدوات الربط اللازمة فى المعانى ، الا فى بعض الأحيان ، أى أنها لغة تستخدم الاسماء وبعض الحروف ، وكأنما هى تحكى ما أشار اليه القرآن الكريم فى سياقه الظاهرى : « وعلم آدم الاسماء كلها » . . .

وقد أوردت صحف الخليج واذاعاتها نماذج من ذلك فى اطار السخرية أو الفكاهة والاضحاك ، وشر البلية ما يضحك ، وأوضح النماذج فى هذا الصدد ما يلتقيه الانسان فى المستشفيات وعند بعض البائعين . . . والغريب أن من يتعاطى هذه اللهجة يعتقد أحيانا أن غيره من الناطقين بالعربية ، هو الذى لا يفهم العربية ؟

أما اللهجة العربية الخاصة العامية ، فهى الفصيل الذى يتمـاثل مـع العاميـات الاخرى فى البلدان العربيـة ، فى مشاكلهـا ، واهتمام القـائمين بـأمر البحث اللغـوى والتربوى فيها .

وهذه اللهجة هى وليدة تفاعلات متباينة فى المنطقة ، فدول الخليج قد ارتضخت مؤثرات حديثة من فارس والهند ، وهيمن عليها ـ عدا السعودية الاستعمار البريطانى حتى مطلع السبعينات ، ومع ذلك لم تؤثر لغة المستعمر على ثقافة المواطن العادى الا فى بعض الاسماء ، كالمصنوعات المستوردة والتعامل الادارى ، وفيما عدا ذلك ، فقد كانت الحياة مبتوتة بين القاعدة الاجتماعية العريضة والسلطات الأجنبية ، حيث كلفت أنظمة الحماية البريطانية الشخصية الاعتبارية للشيوخ .

وكان أكثر المحميات العربية احتكاكا بالثقافة واللغة الانجليزية هى البحرين ، نسبة لموقعه الهام بين شطرى القارة الآسيوية . . . وهكذا كانت الحال فى هذا البلد منذ العصر الجاهلى ، حيث يمثل القنطرة التى تعبر بها واليها المؤثرات الثقافية ، بين شبه الجزيرة العربية ، وروافد الهند وفارس . . .

وكما أشرت من قبل من أن عامية الخليج صورة متكاملة لواقع اللهجات التى تحفظ عليها القدماء فى أحكامهم اللغوية ، من حيث نطق بعض الأصوات وخصوصية بعض الألفاظ اللهجية ، فهى صدى حقيقى لكل ما تحكيه من مفارقات تعبيرية . . .

ان المفارقات اللغوية بين لهجة ، أو لهجات الخليج ، واللهجات العربية الأخرى متعددة وكبيرة . . وقد درسها بعض الباحثين وفصلوا فيها القول ولكن الذى لم يبحث أو يبت فيه فهو أمر وضعها السياسى ، حيث بدأت كل دولة أو امارة تشجع لون لهجتها الخاصة سن خلال المسرح والتمثيل وبعض البرامج الاذاعية والتلفزيونية ، كما بدأت المنطقة تهتم بأدبها الشعبى الذى يجسد لسانها المحلى . . .

ولكن أمر الأدب الشعبى أو التراث الشعبى له محاذيره التى يجب الا تخفى فى مجال البحث مع جدواه الذى لا ينكره أحد . فالتراث الشعبى كما هو معلوم يساعد على تبيان المراحل اللغوية وأنماطها ، والوقائع التاريخية المحلية التى قد تخفى أحيانا ، ولم تسجلها المدونات الرسمية ، وهو الى جانب هذا ضرورى فى مجال البحث الاجتماعى . . . ولكن خطورته أنه يغذى الروح الفردية ، والرغبة بقصد أو بغير قصد الى الاهتمام بالعاميات أكثر من الفصحى ، وهو ما يؤدى بدوره الى خلق انفصام حاد بين المستويين التعبيريين ، مما جعل التعبير الفصيح فى عداد اللغات الاجنبية ، وليس كما هو مفترض من أنه لسان معاش بين افراد المجتمع الواحد ، أو المجتمع الذى لا يستقيم بنيانه بغير لغة القرآن الكريم . .

ان ما تختزنه اللهجة الخليجية فى مجال البحر ، وتاريخ استخراج اللؤلؤ ، وحركة التجارة عبر هذا الفاصل المائى ، والمحيط الهندى والقرن الافريقى . . . لثروة لغوية هائلة ، لابد من التوافر على دراستها وتصنيفها وترشيدها وتوظيفها فى ميدان المصطلحات العلمية الخاصة بذلك فهى وان لم تكن عربية فى سنخها الا أنها من الدخيل أو التداخل الذى لا يستنكره اللغوى الباحث أو يتجاهله . . وهو من قبيل الاقتراض اللغوى الذى يرجع اليه كثير من طرق التطور والاثراء فى اللغة . . .

لقد سجل ابن جبير فى رحلاته جانبا من هذا اللون ، وكذا كان ابن ماجد ، وكم يكون مفيدا اذا عنيت اقطار الخليج ، فأعدت فرقا للبحث وهى بدورها تقوم بوضع معاجم متخصصة . . . فاليمن وعمان جديران باستكمال جهود احمد بن ماجد البحار المشهور ، وتسهم الكويت والبحرين والسعودية وما فيها من تجارب ثرة ، وثروات تراثية ضخمة فى مجال المعرفة اللغوية . . .

وبقدر ما استعارت الحضارات الاخرى من حصيلة ما توصلت اليها العربية القديمة ، فى ميدان الانواء ، يكون من الضرورى أيضا لعرب اليوم أن يساهموا فى اثراء المصطلحات العلمية التى تأبت على الباحثين العرب المحدثين فى معظم المستويات خلال القرون الأخيرة .

وأعتقد أن هذا هو ما ينبغى أن تشارك به اللهجة الخليجية فى حل مشكلة التطوير اللغوى للعربية ، لا أن تصعد التشويش اللغوى المضطرب الى مصاف اللهجة العامية ، وبالتالى تنحدر بالفصحى الى عاميتها فتكون بعد فترة لغة مستقلة يبحث لها اللغويون عن انتماء فى الاسرة الهندية . . .

ان الواقع اللغوى الذى عاش فيه الخليج قبل الاستقلال ، كان من المفترض أن يساعد على سلامة اللغة ، رغم محدودية التعليم يومذاك . . . ولكن ما حدث عكس ذلك ، قبل الاستقلال وبعده ، وكأنما الطفرة الاقتصادية البترولية التى حدثت خلال العقد الماضى ايذان بمحاصرة الفصحى من قبل أجهزة الاعلام والشارع والمجتمعات العامة .

أما اللغة العربية الفصحى ، فأمرها أشد اضطرابا ، رغم انعدام الصراع حول التعريب ، ولكن المنطقة قد ورثت عادات البلدان العربية الأخرى فى مجال تعريب العلوم التطبيقية ، وذلك من جراء النوعيات التى ساهمت فى حركة التعليم والتثقيف فى بلدان الخليج . . . اذ استقبلت هذه الرقعة الجغرافية الجاذبة أفواجا من المصريين والفلسطينيين

ومن سوريا ولبنان وبعض السودانيين . . . وقد نهلت هذه الأقوام العلوم من خلال أوعية قد خطط لها الاستعمار الانجليزى والفرنسى فى المنطقة ، وسار على هديها المؤسسات العلمية الوطنية بعد الاستقلال . . . فالصراع فى حقيقته صراع منقول اليها ، ولعل حسمه لن يتم الا بعد توفير الأطر اللازمة من أبناء المنطقة ذوى النزعة العربية الصادقة .

لقد أصبح اليوم فى أى بلد خليجى جامعة فأكثر ، وعدد من المعاهد العليا ، وبدأ التعليم هنا يسير فى تطوره وتنوعه وتوجهه وفق الاسس التى يضعها مجلس التعاون الخليجى بأفرعه المتخصصة ، ولاسيما مكتب التربية بالرياض فى المملكة العربية السعودية . . .

ولكن مما يلاحظ على توجهات هذه المنظومة الخليجية حرصها الشديد أحيانا على ايجاد شخصية متفردة ، أو محاولة بنائها من جديد مما يوحى بتكوين منطقة اقليمية متميزة فكرا وثقافة ، وهو ما ينذر بخطورة التجزئة العربية غير العفوية ، لا سيما أن المنطقة تتمتع بأوفر الامكانات الاقتصادية التى تحتاجها الأمة العربية كلها ، وليست جزءا منها ، هذا طبعا اذا سلمنا بمصداقية الدعوة الى أمة عربية واحدة هذه الوحدة التى لم تتحقق من يوم أن اصطنعوا لها جامعة ومنظمة منذ ما ينيف على أربعين عاما . . . فقد كان العربى من آسيا وافريقيا يستطيع أن يجوب معظم الأقطار العربية رغم القيود الاستعمارية بعناء يقل كثيرا عما هو عليه الحال بعد الاستقلال ، وظهور فكرة القومية العربية ، والتدخل العسكرى أحيانا لفرضها .

لقد انتقلت عدوى الصراع الثقافى والتمزق اللغوى الى منطقة الخليج التى بدأت التعافى فى السبعينات ، ولكن سرعان ما وقعت فى المحظور بواسطة الجرعات التى تلقتها فى المناهج الدراسية ، والأفكار السياسية والوسائل الاعلامية : صحفا واذاعة وتلفازا ومسرحا ، صيغت كلها بعناية فائقة لكى تؤدى غاياتها الاعلامية والتثقيفية والترويحية ، بالاضافة الى مضامينها البعيدة . . .

ومن جراء ذلك ظهرت الدعوة الى ضرورة الالتفاف حول التراث المحلى ذى الصبغة الانفرادية ، تعبيرا ومضمونا ، بحيث اذا رغب العربى غير الخليجى أن يتفاعل معها لاستحال تحقيقه الا عن طريق الترجمة ذات المراحل : من اللغوة الى اللهجة الى اللغة الفصحى . ومهما يكن من أمر فان مكتب التربية لدول مجلس التعاون الخليجى وهو الذى يرسم السياسة التربوية والتعليمية لدول المنطقة كلها ، يحاول جهده اصلاح ما يمكن اصلاحه مما افسدته بعض التصرفات . . . ولكن للأسف فى اطار ما يحافظ على خصوصية المنطقة .

ومن بين جهود ذلك المكتب محاولته الارتقاء بثقافة الخليج ، وما أعظمه لو كانت المحاولة للارتقاء بثقافة الأمة العربية كلها ، أليست المنظمة العربية تضم الخليج أيضا ؟ .

ومن بين مرتكزات الارتقاء التى حددها مكتب التربية المحاور التالية[٢] :

١ ـ الثقافة العربية الاسلامية ، هى اطار التخطيط الثقافى لدول مجلس التعاون الخليجى ، مع مراعاة الواقع الاجتماعى والاقتصادى والثقافى وخصوصية التخطيط المطلوب لملائمة هذا الواقع .

٢ ـ اقرار الديمقراطية ، والحرية الثقافية ، والحوار المفتوح بوصفها أسسا للتنمية الثقافية .

٣ ـ المشاركة الثقافية حق لكل المواطنين انتاجا واستفادة .

٤ ـ الارتباط بالتراث لا على أساس أنه نصوص وقيود ، ولكن على أنه روح ونبع الهام ، وعلى انه لب الذاتية الحضارية ويجب أن نحتويه ولا يحتوينا .

٥ ـ الالتزام باللغة العربية الفصحى بوصفها وعاء الثقافة ، وأداة التواصل .

٦ ـ الحوار على مستوى الندية مع الثقافات الأخرى ، والسعى معها لاقرار القيم الانسانية .

وكان الهدف من هذه المرتكزات أو المبادىء :

١ ـ اغناء شخصية المواطن العربى فى الخليج ، وبناء تكاملها عن طريق الوعى المتزايد بعقيدته وتراثه وحريته وكرامته وانتمائه ، وبقدرته على مواكبة التطور الانسانى .

٢ ـ تطور البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية بوصف الثقافة ركن البناء الحضارى ـ وأساس تماسك الأمة .

٣ ـ التشبع بالهوية الحضارية العربية الاسلامية ، بوصف الثقافة مستودع الاصالة والكنز الواسع من الخبرات .

٤ ـ تحويل واقع التجزئة الراهن لدول مجلس التعاون الى وحدة اقليمية متكاملة ترسى أسسها التوجهات الثقافية .

٥ - التحرر الشامل ضمن الاطار القومي العربي ، بوصف الثقافة وسيلة دفاع ضد الاستلاب والتبعية ، بقدر ما هي عنصر بناء وابداع .

٦ - تنمية العطاء الحضاري قوميا وانسانيا ، بوصف الثقافة عنصر التآخي ضمن الاقليم الواحد ، وعنصر التقارب والتعاون مع الحضارات الانسانية الأخرى .

وأمام هذه الأهداف والمبادىء ، تستوقفنا العبارات الآتية : -

١ - الديمقراطية ٢ - الحرية الثقافية ٣ - التراث ، ولب الذاتية الحضارية ؟؟ فماذا تعني هذه العبارات ؟

فللديمقراطية أطر وتوجهات وأفكار تتحكم في صياغتها وتطبيقها ، وللحرية الثقافية أبعاد ونوعيات مختلفة ، وذاتية الحضارة من خلال التراث تختلف من عصر الى عصر ، ومن قطر الى آخر ، وتلك الأمور تتوقف عندها الدراسات والتطبيقات كثيرا ، وليس خافيا على أحد ما تتعاطاه دول - المنطقة من مستويات خاصة في الممارسات الديمقراطية والثقافية ، قد لا تدخل فيما تعارفت عليه المجتمعات الديمقراطية التي وفدت منها تلك المصطلحات والعبارات بدلالاتها التطبيقية . . . وأي استمساك بشعار تراثي غير الاسلام ، هو في الواقع ، ارتداد ثقافي أو تقليد على غير شروط المدلول العلمي للكلمة .

أما الالتزام باللغة العربية الفصحى ، فهي بيت القصيد ، اذ أن ، الالتزام هنا يعني ضرورة الترشيد الكامل لكل ما يقال ويكتب على المستويين التعليمي والاعلامي ، وهنا يتوقع الصراع الحاد بين انصار العامية ودعاة الفصحى . . . وهذا بدوره يمحض المسألة الى مستوى الحوار مع الثقافات الأخرى . . . فالحوار الثقافي على مستوى الندية ، لن يتأتى بدون الارتكاز الاسلامي والوعاء الفصيح ، لأن المنطقة بغير ذلك الارث الحضاري اللغوي لا ميراث لها في الحياة ، تستطيع أن تتحدث به أو عنه . . .

فاذا تجاوزنا هذه الجوانب ، فهناك ظاهرة أخرى لها خطورتها لم يتنبه لها الكثيرون ، الا بعد استفحالها واستشرائها ، وهي تدب دبيبا دون ضوضاء أو اثارة ، حتى تتعمق بين المجتمعات . . .

وأعني بتلك الظاهرة ، أسماء اعلام الأشخاص والأماكن ، وهي التي تعطي من جانب أصالتها ، صورة الشخصية الاجتماعية للقطر أو المنطقة ، كما تعكس تلاشي الشخصية من جانب آخر ، حينما تكون الاعلام الاجنبية هي الغالبة ، وهنا نلاحظ في

أوساط أسماء النساء التحول السريع الى الاستعارة عن أعلام المجتمعات الأخرى ، ومنها ذات الأصل الأوروبي . . . كما أن أسماء الرجال تميل الى الاقتراض الواسع من أسماء المجتمعات الشامية والمصرية .

ومهما يكن من أمر النوع الثانى ، فهو لا يؤثر سلبا على ذاتية المنطقة ، بقدر ما تسهم فى بلورة قومية الأسماء العربية .

أما أسماء المحال التجارية ونحوها ، فقد اختلط فيها كل شىء نتيجة للتوسع الاقتصادى والانفتاح الثقافى والتداخل اللغوى والضغط الاجتماعى الذى يتعمق كل يوم بفضل هجرات الجماعات ذات الأصول البشرية المختلفة ، والمشارب الحضارية المتعددة[٣] .

معارك جانبية بمنطقة الخليج :

شغلت الأوساط الحديثة فى الخليج بمعارك وقضايا متعددة ، ومنها على سبيل المثال :

١ ـ المرأة ، ومكانتها الاجتماعية والسياسية والأدبية ، وموقف الرجل منها ، وموقفها من الرجل ، والدعوة الى تحررها ، وأنظمة التعليم السائدة من : مباشر وغير مباشر .

٢ ـ عدم الواقعية عند المرأة الخليجية ، حينما تتحدث عن نفسها ، وعن قضاياها ، اذ تفترض انها المرأة الوحيدة على الأرض العربية فكرا وثقافة وابداعا ، فاذا نظمت بيتين من الشعر حسبت نفسها شاعرة ، وان كتبت بضعة أسطر خالتها من كاتبات القصة والرواية على مستوى العالم ، وأن أدلت برأيها تفترض القول الفصل فى ذلك .

٣ ـ الحداثة وتياراتها ، من شرقية وغربية .

٤ ـ قضايا الشعر الشعبى ، واهتمام المجلات وصفحات الجرائد الاسبوعية من اريج وسواها ، فهى تعطى صورة التباعد اللهجى بين الخليج والبلدان العربية الأخرى من جهة ، وبين اللهجات الخليجية نفسها من جهة ثانية ، فالاختلاف فى أصوات وصوتيات بعض الألفاظ ، وفى طريقة الاشتقاق ، والتعبير والتراكيب ، ودلالات المفردات والأساليب كل ذلك يحتاج الى معايشة ألسنة المنطقة ولهجاتها . . . ومهما يقال عن القرب أو البعد بين العامية والفصحى ، فذاك أمر تقديرى لا يعدو كونه تعصبا أو تحاملا ، اذا لم يوضع القول فى سياق توصيفى وتحليلى ، فى ضوء التقييس اللغوى السليم .

١ ـ العراق :

وعراق الرافدين ، عريق فى تاريخه وتراثه ، فقد تعاورته حضارات متنوعة ، ومن بينها ، وأقدمها تلك التى حفظتها مدونات حضارة الأشوريين والتراث الحمورابى الذى اتكأت عليه كثير من المساهمات الانسانية التى تعاقبت من بعدها . . .

كان هناك الفارسية بلهجاتها ، والسامية القديمة ، ثم العربية التى ازدهرت فى القرون الاسلامية الأولى ، بحيث أصبحت أداة التعبير بين الشعوب الاسلامية . . . رغم وجود الدخيل اللغوى الغزير ، الذى ألفت فيه كتب ورسائل ، الى جانب ما نبه اليه الجاحظ وأمثاله من الخصائص التعبيرية التى تصور أنماطا لهجية-فئوية أثرت بدورها على اللسان العربى العام . . .

ولقد أثرت التغيرات اللغوية القديمة ، فى العراق وما حوله من منطقة الخليج ، على الواقع الثقافى الذى يتعاطاه اليوم أفراد تلك المجتمعات ، اذ أن الوجود العراقى بروحه وزخمه لا يمكن اغفاله فى اطار أى رصد اجتماعى أو ثقافى أو لغوى . . .

وكما كان القرار السياسى فى دول مجلس التعاون الخليجى ، يختلف تماما عما هو فى العراق حديثا وقديما ، فان السياسة اللغوية التى تعكسها أجهزة الاعلام ومؤسسات التعليم متفاوتة تفاوتا شبه تام ، مع أن العراق عضو أو مراقب فى بعض أجهزة ذلك المجلس ، كالتعليم والرياضة .

ان اللهجة العراقية تختلف عن جاراتها الخليجية ، فى مستويات الحياة العامة والخاصة ، ولا سيما فيما يخص مرحلة النشىء من الطفولة الى مرحلة الدراسة الجامعية ، اذ أن مجتمع العراق لم يعتمد كثيرا على نظام المربيات المستجلبات من الأقطار الأجنبية ، أو استقدام العمالة غير العربية ، أو الاعتماد على غير العراقيين فى ميادين التربية والتوجيه والتخطيط ، ومع ذلك فان العراق لم يكن مبرأ من الآثار السلبية الجانبية . فهناك تجاذب مستمر بين العربية الفصحى ، ولهجات محلية تختلف من قرية الى أخرى ، ومن مدينة الى مدينة ، هناك الفارسية والكردية بلهجاتها والأرمنية والسريانية والتركية والانجليزية ، وما فيها من تسرب لبعض اللغوات المصاحبة لها .

ان العراق من بين الاقطار العربية التى تبنت احدى التيارات القومية المرافقة لنشأة جامعة الدول العربية ، والمفترض فيها أن تكون هى الاطار الجامع ، ومن خلالها تتحقق القومية العربية ووحدتها . . .

وقد ظهرت التيارات القومية أول ما ظهرت بالشام ، وفيه الفينيقية والسوراقية ، وهما تعبيران محدودان بالشام ، أو بالشام والعراق فقط كلاهما من التوجهات ذات المدلولات التجزيئية ، ثم ظهرت فكرة البعث المنشطرة بدورها الى بعث عراقى ، وآخرى سورى من خلال الأجنحة المتخاصمة المغذاة بالانتماءات الاقليمية الضيقة . .

وقد أكد فلاسفة البعث(٤) على ضرورة الاحتماء باللغة العربية ولكنهم سرعان ما تخلوا عن حمايتها من الانهيار الحاد . . . فهذا الفكر القومى البعثى ذو النزعة السوراقية أدى فى بعض ممارساته الجدلية بالأقطار الأخرى ، الى الأحجام عن التعاضد معه فى بعض المجالات حتى يتم الحفاظ على كيان اللغة وسلامتها . . . فما نبعت دعوة لاصلاح أمرها الا توقف ذوو التوجهات الأخرى مترددين حيالها . . . ولذا لم يؤثر هذا الحضور السوراقى الواسع منذ القدم على منطقة الخليج فيما من شأنه أن يوحد المنزع الثقافى والتعليمى . . . .

ومع هذا ينبغى على الراصد للواقع العربى ، أن يقرر بأن العراق وسوريا هما من أجرأ البلدان العربية فى اتخاذ القرار السياسى اللغوى والثقافى والتربوى ، بقطع النظير عن الآراء حول سلامة القرار أو خطئه .

٢ ـ الشـــام :

حينما كانت العربية ، فى تاريخها ، تستطيب جمع الشمل ، عرفت مناطق واسعة منها باسم واحد ، ومن بين تلك المناطق : الشام وهى تضم الأردن وفلسطين وسوريا ، وحتى الحرب الكونية الاولى لم تعرف هذه التجزيئات الصغيرة ، وكانت اللهجة ولما تزل فى عمومها متشابهة رغم ما حرصت عليه جبهات معينة بعد الاستقلال الى بناء الشخصية الثقافية المتفردة ، فعمدت بدورها الى بعض التمايز اللهجى عن طريق احياء انماط سامية قديمة ، ودخيل لغوى عرفت به المنطقة قبل الاسلام من يونانية ولاتينية .

لقد صارت لفظة الشام حينما تسمع ، لا يتبادر الى الذهن غير سوريا وبالذات دمشق ، فحتى اسم العلم قد تغيرت دلالته من العموم الى الخصوص رغم أنف استيفن أولمان ومن سار على نهجه من السيمانتيكيين .(٥)

ونتيجة للتفتت السياسى الذى منيت به الشام بعد الحرب الأولى عانت كذلك من التمزق اللغوى ، وقبل هذا كانت الأزمة اللغوية من جانب واحد حيث الافتقار الى التراث الحضارى العريق ، اذ لم تكن للمنطقة هوية الا بعد أن أخذت بالاسلام منهاجا واطارا

حضاريا . . . ولم تستطع التركية أن تترك تأثيراتها الواضحة ، الا عن طريق بعض الألفاظ المختومة بـ : الخانة والباشا وسواهما ، وقد عرف هذا العهد بالنسبة للأدب العربي بأدب الانحطاط ، أى من حيث البلاغة والطبع الفصيح ، مع أن العهد التركى قد شهد اثراءا واضحا فى الميادين العلمية الأخرى ، كالفقه والتاريخ وبعض الموسوعات ، ومن بينها : مختصر خليل فى الفقه ، وتاج العروس فى اللغة .

ان الميراث التركى ربما رعته مصر أكثر من سواها حتى العهد الملكى الذى انتهى بثورة ١٩٥٢ م ، ومع ذلك فقد كانت اللهجة المصرية محتفظة بخصائصها . . . وبانتهاء العهد التركى لم تتحول مصر الى دول ولهجات أو احياء للقديم القبطى الا من خلال بعض التيارات التى سرعان ما تخمد فى مهدها .

أما الشام فأصبحت دولا ، وكيانات ثقافية وعقدية متميزة من فينيقية ولبنانية وسورية ، ثم سوراقية ومسيحية ومسلمة ، وعلوية وسنية وشيعية وهاشمية ، ومارونية ودرزية . . . الخ ، وكل كيان فيها يندفع فى كثير من الاحيان بقوى خارجية ، بحيث أصبح الجميع ممثلين لارادات أجنبية تفرض التقارب أو التباعد وقتما تشاء ، وبالكيفية التى تفضلها .

وبعد نهاية الحكم العثمانى خضعت المنطقة لحاكم جديد يختلف معها فى اللغة والدين ، بعد أن كان الحاكم التركى يتفق مع شعوب المنطقة فى الدين ، والدين واللغة فى الاسلام متلازمان على الوجه الأمثل .

وبالاضافة الى الاختلاف اللغوى والدينى مع الاستعمار البريطانى والفرنسى استقبلت الشام وافدا بشريا جديدا عن طريق الجذب ، والافراغ من اقطار عربية أخرى ، وهو الوافد اليهودى الذى كانت مستوطناته فى شمال افريقيا واليمن والعراق ومصر وأوروبا .

لقد شهدت فلسطين خمس موجات من الهجرة اليهودية حتى قيام دولة اسرائيل(٦) :-

الأولى : من ١٨٨٢ - ١٩٠٣ وأتت بنحو ٢٥,٠٠٠ يهودى معظمهم من روسيا وأوروبا الشرقية .

الثانية : من ١٩٠٤ - ١٩١٣ وأتت بحوالى ٤٠,٠٠٠ يهودى كلهم من روسيا تقريبا ، وفى هذه الفترة تأسست مدينة تل أبيب .

الثالثة : من ١٩١٩ - ١٩٢٣ وأتت بحوالى ٣٥,٠٠٠ من أوروبا الشرقية .

الرابعة : من ١٩٢٣ - ١٩٣١ وأتت بحوالى ٨١,٠٠٠ معظمهم من بولندا .

الخامسة : من ١٩٣٢ - ١٩٣٩ وأتت بحوالى ٢٢٥,٠٠٠ من ألمانيا .

وقد بلغ عدد اليهود فى ١٩٤٦ م حوالى ٥٨٣,٣٢٧ وفى عام ١٩٤٨ كان عددهم عند اعلان دولة اسرائيل حوالى ٧١٧,٠٠٠ ، أما الذين وفدوا بعد قيام الدولة الى ١٩٥١ فقد بلغ عددهم ٦٦٦,٠٠٠ من بولندا ورومانيا والاقطار العربية ، وفى الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٦١ بلغ عدد المهاجرين حوالى ١,٠٦٣,٦٠٠ من اجمالى اليهود البالغ ١,٥٨٩,٦٠٠ وماتزال الهجرات اليهودية تتوافد كل شهر وعام .

والذى يهمنا هنا هو الجانب الثقافى واللغوى ، ولعل مصادر الهجرات تعكس انا بوضوح الموروثات الدينية والاجتماعية واللغوية لتلك الجماعات والتأثيرات التى تخلفها على المنطقة ، فكم من لغة أوروبية بلهجاتها ولهجات عربية وبربرية قد استوعبت فى فلسطين منذ أربعينات هذا القرن والى هذه الثمانينات التى نعيشها ؟

والسؤال : هل استخدمت اسرائيل الألسنة المهاجرة اليها ؟ أم استمسكت باللغة التى تعتبرها عنوان قوميتها وروح بقائها الحضارى ؟

ان اللغة العبرية هى لغة اسرائيل الرئيسية ، الى جانب لغتين مساعدتين فى الحياة العامة ، والتبادل العلمى والثقافى حسب دواعى الاستخدام الداخلى والخارجى . . . واللغتان هما : العربية والانجليزية .

أما العبرية المستخدمة بعد قيام اسرائيل ، فهى عبرية مستحدثة فى مجمل جوانبها ، وطرق اشتقاقها وتطور دلالاتها وتنوع أساليبها ، فلم تكن عبرية التوراة ، أو تلك التى تحمل تراث اليهود القديم فى المشرق والمغرب قبل الاسلام وبعده . . . انها لغة مصنعة من عشرات اللغات واللهجات ، وتعتبر فرضا عينيا واجتماعيا ودينيا لا تسامح فى تعاملها مهما كان عمر اليهودى المهاجر . . . وهى من أصعب مراحل التأقلم التى تواجه ذلك الوافد الجديد ، بالاضافة الى الختان . فكلاهما كالعلقم ، ولكن فى سبيل بناء الكيان الدينى اليهودى ، يهون أمامهم كل شىء ، ويسهل كل صعب .

ولقد نجحت اسرائيل فى تطوير اللغة العبرية الميتة الى لغة حديثة يمكن تعلمها

لليهودى العادى والباحث العالم فى مدة وجيزة ، فى حين عجزت الأمة العربية فى جعل لغتها أداة تعلم وتخاطب بين أبنائها . . فما الفرق بين هؤلاء واولئك يا ترى ؟؟؟

ان العبرية تغذى يوميا بكلمات جديدة وأساليب متطورة ، ولعل صحيفة هادافار أوضح مثال فى ذلك ، اذ دأبت على اغناء اللغة العبرية الحديثة باشتقاقات جديدة ومصطلحات مستحدثة .

لقد بدأ الأدب العبرى اليوم يتجاوز المحيط المحلى الى الخارج لا على اساس ان هناك قارئين بالعبرية فى اوروبا أو أمريكا أو آسيا . . ولكن هناك من يوظف الانتاج العبرى توظيفا ناجحا ، وهو ما يفتقره الأدب العربى الحديث . . . ولا يتبادر الى الذهن وجود أدب عبرى أو فكر عبرانى فى المشرق أو المغرب بعد الفتح الاسلامى وحتى قبيل قيام اسرائيل . اذ أن ما ساهم به اليهود فى أسبانيا أو المغرب والمشرق كان ضمن الوعاء العربى الاسلامى ، لغة وفكرا وحضارة وثقافة . . . وهو نفس الموقف بالنسبة لكتاب البلدان الافريقية والآسيوية والأمريكية الذين اصطنعوا اللغات الفرنسية والاسبانية والانجليزية فى انتاجهم الفكرى والأدبى .

ومن المفارقات اللغوية الغريبة أن المستمع الى الاذاعات الناطقة بالعربية يلاحظ السلامة اللغوية ويسر التناول ووضوح التعبير فى الاذاعة الاسرائيلية بالعربية ، فى حين تصطك أذنه بالاخطاء ومظاهر العى والتوجس فى نطق الكلمات والغموض فى التعبير عند الاذاعات العربية الا فى النادر القليل .

ان نطق الاسرائيليين للعربية ، حتى على مستوى بعض قيادات الكيان الصهيونى ، يعطى المستمع العربى احساسا بحرصهم على التجويد فى الأداء ـ وهو ما يفتقر اليه ابناء العربية .

لقد شاء القدر أن تكون الشام من أكثر المناطق العربية دعوة الى العامية : تفكيرا وتعبيرا ، أدبا وحديثا ، سجلتها مدونات موثقة شعرا ونثرا ، وهى دعوة حظيت بالاهتمام فى لبنان على وجه الخصوص وكأنما الأمر فى حقيقته ردة فعل دينى مسيحى أكثر من كونه وجهة نظر لغوية ، تسندها فى ذلك تيارات سياسية توظف جهودها العلمية على مسخ الشخصية العربية ، ليكون مقدمة الى اجتثاث الوجود الاسلامى .

وقد ذهب التطرف ببعض اللبنانيين الى أن يدعو ، الى لغة لبنانية متميزة فى أصواتها وتراكيبها ودلالاتها ، بل رموزها الكتابية ايضا واقلهم تطرفا من دعا الى لهجة لبنانية متميزة

عن بقية أبناء الشام ، وقد كتب بها الاشعار والقصص ، دعك عن المصنفات الاذاعية والتلفزيونية والسينمائية والمسرحية ، وهى نفس المسارات التى تتبعها أقطار عربية أخرى بشىء من عدم الغلو والتطرف ، اذ لم توجد دولة واحدة تحرص على استخدام الفصحى فى تلك المجالات جميعها . .

وينبغى أن نقرر هنا ، بأن بعض الاعمال المسرحية والتمثيلية التى قام بها اللبنانيون بالفصحى ، تتميز بنكهة جميلة خاصة ، تفوق ما قدمه أمثالهم فى البلدان العربية الأخرى ، ولا أدرى لماذا الحرص الشديد على اللهجة بعد ذلك ؟؟؟

نقول هذا وفى اعتبارنا الجهود الصادقة فى سوريا ، والتى عملت منذ فترة مبكرة على تعريب التعليم فى المراحل المختلفة ، وهى خطوة يقف عندها جميع الباحثين ، والتربويون ، اذا ما أرادوا أن يتناولوا قضية التعريب أو المصطلح العلمى . . .

ان القرار السياسى ضرورى فى جميع المجالات ، ولعل تجربة عبد الملك بن مروان ، فى القرن الأول الهجرى خير دليل فى هذا الصدد ولم تكن هناك الوفرة فى المتعلمين والباحثين بالكم والكيف اللذين يوجدان الآن . . . ولكنها الجرأة فى القرار ، والتصميم على التنفيذ .

وهكذا كان الموقف بالنسبة للاسرائيليين ، وهم يعلمون ضآلة مقومات لغتهم ، بالقياس الى اللغات الحية الأخرى ، ومن بينها اللغة العربية .

○ ○ ○

افريقيا

١ - مصر :

تعتبر مصر مركز اشعاع حضارى وثقافى منذ آلاف السنين ، وبعد دخول الاسلام اليها فى العقد الثالث من القرن الأول الهجرى ، وتعاقب العصور السياسية عليها ، بنى الفاطميون فى القرن الرابع الهجرى الجامع الأزهر ، وقد كان منذ بدئه رحابا لاعداد الدعاة فى العالم الاسلامى . وسلاح الدعوة الاول فى أى فكر من الافكار هو اللغة ، ومن هنا كانت رعاية اللغة العربية وتطويرها من الأمور المسلمة فى ترقية الحياة العلمية والأدبية .

ولسنا هنا بسبيل تأريخ تلك الحقائق أو التنبيه اليها ، اذ فاضت بها التأليف ، وأصبح الحديث عنها مكرورا . . . ولكن الذى نود الاشارة اليه هو القرار السياسى اللغوى . . . فقد عرفت مصر بوضعيتها المتميزة وكونها منطلقا للتأثير الثقافى على البلدان العربية الأخرى ، وكان الحاكم فيها يتحدث دوما بلسان المحكومين مهما اعوج لسانه وتراطنت لغته الاولى .

وحينما استقلت ارادتها السياسية أصبحت العربية لغتها الرسمية فى الدواوين والمؤسسات العلمية المختلفة ، مع أنها قد سايرت الدعوة الى تدريس العلوم التطبيقية بغير اللغة العربية . . .

ومن المعلوم أن الانجليزية والفرنسية لغتان استعماريتان ، بسطتا نفوذهما وسحرهما ، وقد بدأت الفرنسية بالغزو الثقافى منذالبعثات الأولى فى عهد محمد على باشا . . ثم تسربت الانجليزية بعد الاحتلال والمعاهدات الثنائية مع الأسرة الخديوية .

ورغم الخطط الثقافية لدولتى الاستعمار ، استطاعت اللغة العربية أن تمتص لغات ولهجات عديدة وأن تصهرها فى بوتقتها ، دون اللجوء الى الاستسلام ، وما ذلك الا للخصوبة المتمثلة فى البيئة والانسان واللسان ، كما تعاملت مع اللغتين الاوربيتين بقانون الاخذ والعطاء ، والاقتراض العفوى حينا ، والمبرمج أحيانا . . .

وتتمتع اللهجة العامية المصرية بخصائص معظم اللهجات العربية ، فهى الوعاء الفسيح الذى استوعبت الجماعات العربية المختلفة ، فتعايشت معها وأحدث ذلك ايقاعا

ثقافيا واعلاميا متسعا ، مما اشاع اللهجة المصرية فى المجتمعات العربية ، عن طريق التعليم والتمثيل والمسرح والسينما والاذاعة ، فصارت عاميتها مفهومة بين الجميع ، ومنطوقة من قبل المقيمين فيها ، والمستمعين الى وسائلها التعبيرية .

واذا نظرنا الى هذه العامية من حيث مستوياتها اللغوية نجدها :

١ - عامية متفصحة : وهى ما يستخدمها المتعلمون حينما يتحررون عن التزام الفصحى .

٢ - عامية الجماعات القبطية المتعصبة ، التى تقترض من المصرية القديمة لاسيما فى مجتمعات الريف والصعيد .

٣ - عامية مصرية نوبية : وهى العربية المتداولة فى صعيد مصر والمتاخمة للحدود السودانية عبر الشلالات ، فالنوبية بلهجاتها القريبة والبعيدة من مصر ، قد رافقت نهر النيل فى هديره وانسيابه منذ آلاف السنين ، وخلفت آثارها فى كل منعرج وفرع ودلتا . وتعتبر هذه اللهجة خلاصة للتداخل اللغوى المتمثل فى العربية السامية ، والمصرية القديمة والنوبية الحاميتين بالاضافة الى النماذج اللغوية التحتية والوافدة للمنطقة ، ومن بينها الانجليزية والفرنسية والايطالية واللغات السودانية الأخرى .

٤ - وهناك فى غرب مصر على الواحات ، توجد بقايا اللهجات البربرية بروافدها الافريقية القديمة .

٥ - أما منطقة سيناء ، فهى منذ فجر التاريخ ساحة للتلاقى والتجاذب بين الثقافات واللغات . . ولعل الباحثين فى تاريخ الأديان مطالبون بالكشف عن الواقع اللغوى وتأثيراته المختلفة عبر التاريخ فى المنطقة اذ أن نشأة موسى عليه السلام فى مجتمع لغوى قبطى أو هيروغليفى وهو من جماعة تتحدث العبرية على أرجح الاقوال ، ثم هاجر الى أرض مدين حيث الصحراء ونشاط البدو الذين لم تنقطع تحركاتهم ، قادمين من شبه الجزيرة العربية أو من الشام . . . ومع ذلك لم نقف على لغة موسى التى تحادث بها مع ابنة شعيب عليه السلام فى البئر ثم مع شعيب نفسه من بعد ، وكذلك اللغة التى استخدمت فى الحوار بين فرعون والسحرة من جانب ، وبين موسى وهارون عليهما السلام من جانب آخر . . . أن أن اللغة كانت واحد فى هذا المسرح الواسع كما يرى لويس عوض فى كتابه : مقدمة فى فقه اللغة العربية

وقد استقبلت هذه المنطقة بعد حرب ١٩٦٧ م من دولة اسرائيل زخما لغويا وثقافيا

واعلاميا وبشريا . . . ومايزال حتى ما بعد اتفاقية كامب ديفيد ، رغم خروج العنصر البشرى الاسرائيلى الرسمى من المنطقة . . . اذ أن الآثار الاجتماعية والثقافية باقية ، ولا أعتقد أنها تزول فى القريب العاجل . . . وقد اثبتت ذلك الدراسات الاجتماعية التى أجريت على المنطقة من قبل باحثين لنيل درجات جامعية عليا . .

ان مجتمع مصر يختلف عن المجتمعات العربية الأخرى ، فهو رغم عاميته أقرب الى التعامل مع الفصيح . . . وان كان القرار السياسى اللغوى فى هذا الصدد أضعف من بعض البلدان . . . يتضح ذلك فى المحاولات التى جرت من البعض على تشجيع العامية والكتابة بها فى القصة والرواية والشعر والحوار المسرحى ، بل نادى البعض من رواد جيل النهضة ومن تلاهم ، بكتابة اللغة العربية نفسها بالحروف اللاتينية ، متناسين خصائص الفحصى الصوتية التى لا تفى تلك الرموز بحاجتها .

وقد وظف التيار المناهض للفصحى وسائل الاعلام لابراز الصورة المشوهة للمتشددين على اسعمالها ، فى صور ساخرة هزئية ، كأنما الناطق بالفصحى يعيش فى العصر العباسى أيام حركات تنقية اللغة . . .

ومع هذا ، رضيت الشعوب العربية أم أبت ، ماتزال مصر هى المعبرة عن ذاتية اللغة العربية ، فصحى وعامية ، فى جميع المجالات الجادة والهزلة وهذا واقع لا مراء فيه .

٢ ـ شمال افريقيـا :

أ ـ ليبيـا :

هى همزة الوصل بين المشرق العربى ومغربه ، تحن الى الشرق ، ويجذبها الغرب ، عربية بربرية افريقية . . أخذت وماتزال ، من مصر ، فهناك مئات الاسر ترجع بأمومتها الى مصر ، ولاسيما فى شطرها الشرقى . . .

أما فى شطرها الغربى فلها علاقة القربى بتونس منذ القدم ، وهى بهذا استقبلت على مدار التاريخ عشرات اللهجات العربية ، واللغات الاجنبية وهى معبر للجماعات المختلفة من المشرق الى المغرب والعكس . . . كما واجهت تيارات ثقافية وسياسية ، منذ اضمحلال السلطة الاسلامية فى العهد التركى فكانت ايطاليا التى لا تختلف فى سياستها عن فرنسا ان لم تكن أسوأ منها ، اذ تتفقان فى أسلوب صهر الشعب المستعمر صهرا كاملا

من خلال الاوعية الفكرية والثقافية واللغوية ، فتركزان على منهج الهجرات القادمة والخارجة ، ثم كانت هناك الوصاية البريطانية والامريكية بعد خروج ايطاليا سياسيا من المنطقة ، ولكن ثقافتها وعاداتها ولغتها قد بقيت فى مختلف المجالات حتى كان الفاتح من سبتمبر بثورته التى بدأت تقتلع كل شىء من أرض ليبيا .

ومهما يكن من آراء خلافية حول المعالجات القذافية للأشياء ، فلا يمكن أن يختلف الناس حول استقلال ليبيا الحقيقى بعد ١٩٦٩ م ، واتجاه السلطة فيها نحو التوسع العمرانى والتعليمى والصحى ، فخرجت أرض الفاتح من السيطرة الأوروبية الاستعمارية الى شىء جديد يتمثل فى الوافد الجديد الضاغط ، من العالم العربى والاوربى الشرقى ، والأسيوى . . . ومع ذلك استطاعت السلطات أن تحمى النشء من المؤثرات الأجنبية المباشرة ، اذ لم تكن هناك منذ منتصف السبعينات وحتى الثمانينات ظاهرة المربيات وخدم المنازل ، وقد تم تنفيذ ذلك بقرار سياسى حازم لم يستثن أحدا فى المجتمع الليبى .

أما على مستوى المرافق العامة ، ولاسيما مجالات الانشاء والتعمير والتصنيع والتعليم ، فتتعدد الألسنة ، وتتداخل اللغات واللهجات من جميع أصقاع الدنيا . . . وقد أثرت هذه الروافد اللغوية فى البنية الفوقية للمجتمع الليبى تأثيرات متفاوتة . . .

لقد عوملت اللغة فى ليبيا معاملة الشئون الخارجية والداخلية والاقتصادية. . . وليس ذلك بالأمر الهين لمن يعرف ليبيا قبل السبعينات وبعدها . . . حيث فرضت العربية بعد الثورة على جميع المجالات ، رغم آنف الجميع . . . وأصبح الأجنبى بمجرد هبوطه على مطارات الجماهيرية مضطرا أن يعرف عبارات : الله غالب ، بلكن مازال ، باهى ، عدى ، غدوة شن بنذير الخ - وهى ما تستخدم بكثرة فى الحياة العامة والخاصة . . .

ان العامية الليبية الشرقية أقرب الى عامية غرب مصر ، من الاسكندرية حتى السلوم . . . وذلك من جراء الصلات التاريخية الوثيقة بين الجانبين ، كما أن التصاهر المستمر كان له الدور الفاعل فى التكوين اللغوى للطفل الليبى أما غرب البلاد فتتقارب فيه اللهجة مع اللسان التونسى والبربرى ، وسرعان ما يعرف الليبى بيئة مواطنه من استعمال بعض الألفاظ ، ويكفى أن كلمة واحدة ، من حيث التقديم والتأخير فى بعض أصواتها ، تشير الى أنه شرقاوى برقاوى ، أو غرباوى طرابلسى ، ككلمة : قعمز ، التى تعنى الجلوس والاقتعاد ، فهى بهذا النطق غرباوى ، أما الشرقاويون فينطقونها : قعمز ، بتقديم الميم على العين . . .

ولعل أحلى كلمة وأرقها على لسان الليبى والليبية غربا وشرقا هى : « باهى » وهى من الالفاظ التى يكثر استعمالها فى ليبيا ، حتى ليكاد أن تنفرد بها ، رغم تداولها أيضا فى اللهجة التونسية ، ولكن الايقاع ودفء الدلالة يختلفان بين الجارتين . .

والى جانب الخصائص العامة للهجة الليبية فى الشرق والغرب تبرز ملامح لهجة اخرى فى جنوبها ، حيث تتكاثر الجماعات التى تنحدر من التبو وهى سلالة لها كيانات موزعة فى تشاد والسودان وأطراف النيجر بالاضافة الى مجموعة ليبيا التى تتميز بسحنتها عن بقية الليبيين .

وهناك الجماعات البربرية الطارقية أى الطوارق الذين يعيشون فى الرقعة الصحراوية التى تتصل بحدود ليبيا والجزائر والنيجر ومالى ولم تستطع القرارات السياسية أن تستأصل جذورها اللغوية ، أو أن تمحو قوميتها ونظامها الأمى ، وان حدث كثيرا منها . . . حتى صارت الجماعات الطارقية تتعاطى اللهجة العربية العامية فى المؤتمرات الاساسية ومؤتمر الشعب العام ومؤسسات الدولة الأخرى .

وفى ضوء هذا ، قد سجلت الوثائق الخاصة بقضية اللغة العربية تميز القرار الليبى السياسى ، وعدم التهاون فى حمايتها . . . مع الاقرار بتأثر العربية الليبية بالمخلفات اللغوية المتعددة فى الاصوات والتراكيب والدلالات ، ولكنها تأثيرات لم تمسخ الذاتية الليبية فى التعبير ، وهى ذاتية مشحونة بكثير من الرومانسية والافلاطونية ، مما أدت بدورها الى استخدام عبارات لها دلالاتها الخاصة ، وايقاعها المتميز ، كالزحف والتصعيد واللجان الشعبية والثورية ، والمؤتمرات الأساسية ، ومؤتمر الشعب العام ، وكتائب المجاهدين ، والجيش الشعبى ، والكتاب الأخضر ، والنظرية العالمية الثالثة ، وتثوير المناهج ، والاذاعة المسموعة والاذاعة المرئية الى آخر ذلم من صيغ وتراكيب لم تألفها المجتمعات العربية الأخرى .

ب ـ تونس :

هى قطعة جغرافية عربية بربرية ، شهدت على مدار التاريخ الزحف البشرى من الشرق الى الغرب ، مدا وجزرا . . . عرفت بافريقيا وفيها كثير من المعالم التاريخية كالقيروان والزيتونة ، وقصدها عدد من علماء المشرق وهجرها علماؤها فيما بعد الى المشرق ، كابن منظور صاحب لسان العرب وابن خلدون صاحب المقدمة . . .

وكانت مركزا تجاريا له دوره الرائد على بلدان شمال افريقيا وكان الباى ممثلا ساميا لاسطمبول فيها . . .

ورغم حرص الجماعات فى مختلف الاقطار ، على الانتساب المباشر الى القبائل العربية الاصيلة النازحة من شبه الجزيرة العربية ابان الفتوحات الاسلامية ، وهى التى ساهمت فى فتوح المغرب . . . فان الوجود البربرى ماثل على جميع المستويات الاجتماعية فى المنطقة . . وهى مع ذلك تعمل جاهدة لتأصيل عروبتها . . اذا لم تتعارض مع مصالحها الخاصة ، ولاسيما توجهها السياسى والاقتصادى . .

وقد أدت الهجرات الاجنبية النازحة عن تونس عقب الاستقلال الى تجانس بشرى بين أفرع الشعب التونسى ، أكثر مما عليه الحال فى جارتيها ليبيا والجزائر . . ولذا أصبح الطابع اللغوى للمجتمع هنا منحصرا بين العربية بمستوييها العامى والفصيح ، وبين الفرنسية . . حيث أطبقت الثقافة الفرنسية بكل امكاناتها ، قبل الاستقلال وبعده ، وكذا البربرية التى تمثل الأرضية التاريخية قبل دخول اللغتين الحضاريتين . .

وكشأن اللهجة الليبية فى توزعها نتيجة للتأثير والتأثر المصرى فى الشرق ، والتونسى فى الغرب ، والافريقى المتزنج فى الجنوب . . كانت التونسية موزعة بين غرب ليبيا ، والجزائر .

ان القرار السياسى اللغوى فى هذا القطر غير واضح ، رغم ما أراد له العرب بعد اتفاقية كامب ديفيد من القيام بدور مصر فى الجانبين السياسى والثقافى ، حيث نقلت اليه جامعة الدول العربية ، وأهم أفرعها : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . . .

وربما كان التطرف الجغرافى عن جسم الأمة العربية ، والميول الحقيقية نحو دول البحر المتوسط ، والقدرات المحدودة قد ساعدت كثيرا على تقييد الحركة فى دولة المقر ، ولربما ، ايضا ، قد كلف القرار ذاك البلد الصغير كثيرا من المشاق . . .؟

وكثيرا ما يستشعر التونسيون ذلك الواقع المتناقض ولاسيما المثقفون منهم ، حيث يتحدثون عن عروبتهم وثقافتهم وفكرهم من الوجهة التميزية ليصبغوا على أنفسهم هالة الفوقية . . . وهو أمر يعنى اعترافا خفيا بأن هنالك شيئا يجب الدفاع عنه . . . ولكن لماذا ؟ فهذا ما يختلف فيه المشارقة والمغاربة !! ولا كيف تفسر عبارات الأمين العام لاتحاد الكتاب التونسيين(١) .

١ ـ الأدب التونسى هو قبل شىء أدب عربى .
٢ ـ أن تونس تمتاز بخصوصية حضارية أدت الى أن يكون أدبها مختلفا بعض الشىء .
٣ ـ اننا نرفض الشعور بالنقص إزاء الأدب العالمى وكذلك نرفض الاستعلاء على الأدب العربى ؟؟

٤ ـ وفى اجابة عما تعانيه تونس من اللغة الفرنسية التى طرحها الاستعمار كلغة بديلة عن العربية ، يقول الأمين العام لاتحاد الكتاب التونسيين .

أقول هذا كلام مرفوض ، وهى نظرة خاطئة ، أسهمت بشكل أو بآخر فى تعميق الهوة بين المشرق والمغرب العربيين ، اننا نتكلم اللغة العربية ونحترمها مثلكم ؟ ونستطيع أن نكتشف الأخطاء النحوية والصرفية التى يقع فيها المشارقة !! .

٥ ـ اننا أكثر قربا الى جنوب فرنسا وايطاليا وجنوب اسبانيا واليونان منكم .

ولنقف بشىء من التأمل امام الفقرات : ٢ و ٤ و ٥ فهل الخصوصية الحضارية فى تونس تختلف عن اللغة العربية والاسلام ؟ ألا يستطيع المستشرق أن يكتشف نفس الأخطاء النحوية ؟ وهل يعنى القرب من غرب أوربا مبررا للانسلاخ اللغوى والثقافى والفكرى ؟؟

ان الجهد الفردى والفئوى ـ سواء أكان فى تونس أو سواها ، لا يكفى فى التعبير عن التوجه الاجتماعى والقومى لبلد من البلدان ، فقد يكون الناطقون بالعربية ، أو أهل صناعة الادب فى تونس على مستوى راق من التعبير العربى السليم ، فى حين يتحدث السواد الأعظم فى المجتمع بلغوة من اللغوات لا تمد للغة العربية بصلة ، كما أن كثيرا من مرافق الدولة هناك تتعامل مع الفرنسية بكل مودة وتوقير . . . وهذا هو ما يعوق سيادة العربية وسيطرتها فى القطر الواحد ، أو فى الاقطار العربية أجمع .

وانه لما لا يحتاج الى هجوم أو دفاع ، أن وجود أدباء أو مثقفين يتعاملون بالعربية فى تونس هو شىء ، وأن الواقع العام والسياسى للغة العربية هناك شىء آخر . . . بقطع النظر من أن عربية المثقفين التونسيين نفسها فرنسية الروح على المستوى الأدبى والنقدى والألسنى ، فى الاشتقاق والتراكيب والدلالات . . . فاذا ما سارت الأمور كما هى عليها الآن ، ستكون الفصحى العلمية فى المستقبل على شكلين متغايرين مشرقى ومغربى وبالتالى تنشغل الأمة العربية بقضية جديدة لغوية وثقافية وحضارية .

جـ ـ الجزائر :

تلك هى الأرض التى مارس فيها الاستعمار الفرنسى ساديتها نحو قرن ونصف من الزمان ، وخلف وراءه تدميرا كاملا فى مختلف المجالات ، وكرس من السلبيات فى الانسان الجزائرى ما لاتحصى . . . ولعل أبرز ما يهمنا فى هذا الصدد ، المحاولة الدؤوبة للقضاء على الهوية الثقافية العربية وذلك باحلال اللغة الفرنسية قسرا واغراءا محل اللغة العربية ، عن طريق

جعل اللغة الفرنسية لغة التعامل الرسمى ، ولغة التعليم الأساسى طوال سنى الاستعمار وحتى مطلع السبعينات بعد الاستقلال . . . حيث خرج الفرنسيون بجنسياتهم تركوا فى الجزائر من يدافع عنهم فكرا وثقافة ولغة . . وكم من جزائرى قاد بلاده سياسيا أو فكريا ، وليست له علاقة بالعربية منهم من قضى نحبه ، ومنهم مازال يستخدم أقنعة متعددة بوساطة شعارات ظاهرها الوطنية والواحدة ، وباطنها التجزئة والاسر الثقافى .

ان الجزائر تتاخم ثلاثة أقطار عربية بربرية ، وهى فى ذاتها تمثل عراقة البربر فى أكثر من جانب ، وفى مقدمة ذلك اللغة . . . وقد تداخلت مجتمعاتها لغويا واجتماعيا مع اقطار افريقيا السوداء : مالى والنيجر كما كانت هجرات الطوارق فى تجارة الملح من الجزائر الى جنوب الصحراء رافدا بشريا ولغويا وثقافيا ، طردا وعكسا بين شطرى القارة منذ فجر التاريخ .

وقد عرفت البلاد منذ قديم الزمان بعلاقتها الوثيقة مع جنوب غرب أوروبا ، قبل الاسلام وبعده ، وقبل الاستعمار وبعده ، وبين هذا وذاك ، كانت صياغة الانسان الجزائرى تتمرحل فكرا وثقافة ولغة .

أما ما كتب عن الجزائر سياسيا فهو يفوق ما جرى القلم به فى شئون اخواتها المغربيات ، وما نحن هنا بحاجة الى اعادة ذلك . . وانما الذى يعنينا هنا موقف العربية اليوم .

لقد كان عهد بن بيلا رغم قصره وحماسه القومى الاشتراكى الناصرى صورة مستمرة لعهد ما قبل الاستقلال ، اذ لم يخط خطوة واحدة نحو الاصلاح اللغوى . . . فكان كرفقائه فى العالم الثالث حيث الشعارات الاشتراكية ، دون تبصر أو ترشيد ، وهذا ما وضح فى منحاه الفكرى بعد اطلاق سراحه فى عهد بن جديد ، اذ اتجه نحو الصحوة الاسلامية ذات اللبوس العلمانية ، ومازال توتره السياسى مستمرا ، حيث نادى بضرورة الاعتراف باللغة البربرية مقابل العربية فى الجزائر ، حتى يضمن تأييد جماعات القبائل والجبال الذين ما انفكوا عن التشبث بالقومية البربرية وما فيها من النظام الأمى الذى يؤرخ للتطور الاجتماعى هناك . أما هوارى بومدين فكان جسورا فى قراره السياسى اللغوى ، وهو الذى حدد مطلع السبعينات نهاية لعهد سيادة اللغة الفرنسية فى الحياة الادارية والرسمية وحرص على اشاعة العربية فى جميع مرافق الدولة ، وأن الموظف الذى لا يعلم نفسه لغة بلده لكى يتعامل بها مع مجتمعه ليس جديرا بمنصبه فى الدولة . ولا غرو فى ذلك ، اذ كان بومدين يتقن العربية ، لا كسابقيه من قادة الجزائر .

وقد انشىء فى الجزائر اخيرا مجلس اعلى للغة العربية يترأسه رئيس الجمهورية ، وأبرز اهدافه :ـ

١ - العمل على نشر اللغة العربية واعادتها الى مكانتها الاولى ، التى كانت لها طوال الماضى فى الجزائر ، وفى غيرها من الدول العربية أيضا . . .
٢ - استقطاب تعاون كافة الاقطار العربية لتحقيق اهداف المجلس .
٣ - ايجاد النصوص التى تصادق عليها اللجنة المركزية لحزب التحرير الوطنى ، وتصبح نافذة المفعول بالنسبة للحكومة .

وبدأ المجلس أعماله فى عام ١٩٨٢ م أى بعد عشر سنوات من المهلة التى منحت لغير الناطقين بالعربية أن يتعلموها ، كما حققت تجربة التعريب فى الجزائر نتائج ايجابية وكبيرة جدا ، خلال الثلاثة والعشرين عاما الماضية رغم المحاولات الاستعمارية التى تمثلت فى النسخ والمسخ والفسخ ، وهى ما قوبلت بالحزم والجزم والعزم ، كما عبر عنه المسئول الجزائرى . .

ويشير هو نفسه الى أنه من الغريب أن نجد بعض الأصوات الموتورة فى عدد من البلدان العربية تدعى أن اللغة العربية عاجزة عن التعبير عن مفردات العلوم التقنية والتكنولوجيا الحديثة . . فى حين أن بعض الشعوب تأخذ من لغاتها الجذور ، ويشتقون منها مصطلحات تقنية لآخر ما يستجد من مفردات علمية وتكنولوجية ، فى الوقت الذى يدعى فيه بعض العرب مع الأسف أن لغتنا العربية قاصرة عن التعبير عن التطور العلمى . . . ان اللغة ليست أداة محايدة ، بل ان روح أية أمة تتسق مع روح لغتها .

وهكذا فان القرار السياسى اللغوى فى الجزائر واضح وجلى ، رغم وجود تيار قوى يعمل بعنف لارتداد هذا القرار . . . ويقود هذا التيار المثقفون انفسهم ، ومن هنا تبرز قضية المثقف العربى ودوره الحقيقى فى المجتمع الجزائرى المشرئب نحو العربية ، وهو موضوع شديد الحساسية يتطلب وعيا كبيرا بالاوضاع العربية منذ عهد الاستعمار الى اليوم ، اذ أن المثقف فى جوانيته يجد صعوبة فى تحمل مسئولياته الحقيقية فى ظل وضع ثقافى عربى متخلف يتميز بعلاقات اجتماعية غير عادلة ، معادية فى بعض الأحيان للعقل والتقدم ، كما يقرره بعض الكتاب المغاربة[٢] ويتلخص حول قضية المثقف الجزائرى فى الصراع العقدى للحرب التحريرية والصراع بين الاشتراكية والحركة الاقتصادية بعد الاستقلال .

لقد وصف أحد الباحثين[٣] اللسان الجزائرى بالدارج الكسيح الذى غلبت عليه الفرنسية ، وعبر آخرون[٤] عن الشعور بالمرارة من سيادة الفرنسية هناك ، حتى صار المتجول فيها يشك فى أنها كانت عربية يوما من الأيام .

ولكن كلا الرأيين قد صدرا قبل مضى عقد من الزمان لاستقلال البلاد من المستعمر

الفرنسى ، وقبل أن يكون قرار التعريب . قد اخذ طريقه فى التطبيق الحازم ، وربما اذا أعاد الباحثان الكرة سيجدان واقعا مختلفا بعد خمسة عشر عاما من الواقع الذى وصفه الباحث الأخير . . .

ان اللهجة العامية فى الجزائر شأنها شأن أخواتها فى الأقطار العربية الأخرى ، فهى تستخدم لهجات محلية تكتسب ملامحها وفقا لقوانين خاصة فى التطور ، من بينها التأثير الذى تتركه على جسم اللغة الوافدة وبالتالى التأثيرات المتراكمة من اللغات المحلية ، يتضح ذلك من واقع تأثير الفرنسية الدخيلة على لهجات المغرب ، ومن أبرز الملامح الفرنسية(٥) :

١ ـ شيوع المفردات الفرنسية وكثرتها .
٢ ـ طرافة استعمال المفردات الأجنبية واخضاعها لبناء اللغة العربية اخضاعا جعل المتكلم العادى لا يشك حين التخاطب ، بأنه يتكلم لغة عربية سليمة نقية من كل الشوائب ؟؟ فالكار وهو السيارة جمعها كيران ، والبلاسا بمعنى المكان تجمع على بلاسات ، جمع مؤنث وبلاسى جمع تكسير ، واللوزين : المصنع ، جمعت على لوزينت وهكذا . . .
٣ ـ الاكثار من المفردات الأجنبية بين الأوساط المتعلمة كتأكيد على طول باعها الثقافى .
٤ ـ التحول الدلالى فى بعض المفردات ، كالعظمة بمعنى البيضة .
٥ ـ التجاور السلمى بين المفردات الأجنبية الدخيلة ، وبين مفردات أصيلة صميمة .
٦ ـ غرابة التعريب فى المرحلة الأولى من الاستقلال ، وما فيها من لكنات ناشزة ، ويتمثل ذلك فى :

أ ـ الاخطاء فى كتابة الاحرف الصوتية على المحال العامة ، كالمصرح بالصاد فى المسرح ، والطاكسى بالطاء فى التاكسى ، ومصناع الاحذية فى مصنع الاحذية .

ب ـ غرابة بعض العبارات : كمجزرة الاحباب ، ومفتاح الدقيق ومحشر الجزائر ، وطبيب الملابس ، وعيادة السيارات ، ومقهى ومطعم صوت الصرصور ومصرف التبريد .

٧ ـ ان اللهجة الجزائرية تختلف بين المدينة والريف ، وبين المتعلمين والعامة ، فالحكايات الشعبية والأمثال والألفاظ كلها حافظت فى مجملها على دارجة صافية من التأثير الفرنسى ، وهذا ما دعا بعض العلماء الجزائريين أن يقرر بشىء من المبالغة(٦) ـ أن العربية العامية الموجودة فى شمال افريقيا وخاصة فى الهضاب العليا والصحراء الجزائرية وفى أواسط وجنوب البلاد التونسية هى أفصح لغة عربية عامية موجودة على سطح الأرض . ؟؟؟

وهذا رأى يحمل بين طياته كثيرما ردود الفعل للنظرة المشرقية نحو عربية شمال القارة ، اذ

أن عبارات : افصح ، وعلى سطح الأرض ، اللتين تشيران الى طبيعة الأحكام الكاسحة لا تصدران الا من عقلية مستفزة فى مجال المنافسة الثقافية بين المشرق والمغرب وما أكثرها .

ومهما يكن من أمر فان عربية الجزائر مرشحة أن تحتل موقعا متقدما فى قائمة العربيات التى تسعى اقطارها على تخليصها من شوائب الدخيل المهين ، فالمسيرة الثقافية العربية هناك ترهص بالنجاح ، رغم التفتت العشائرى والاقطاعى السابق ، والحدود المصطنعة بين الاقطار العربية وما محضته من تعميق للفروق بين اللهجات . . فان روح العصر الحديث وتزايد التقارب الثقافى العربى غير الرسمى ، من شأنه أن يجعل تلك اللهجات تتجه بصورة متسارعة نحو التفاصح ، وان لم يكن الفصيح اذ أن روايات الذين عاشوا هناك فى الفترة الاخيرة تؤكد أن اللهجة الجزائرية قد قطعت مرحلة تشبه المعجزة ، بما نفضته من شوائب اللغة الدخيلة ، وذلك بسبب اتجاه القلوب الى اللغة الوطنية ، أى العربية .

ومن هنا يتضح لنا أن اللهجات العربية فى مجملها ، تقوم اليوم بتقنية مفرداتها وتعابيرها ، كما تتخلى شيئا فشيئا عن البناء اللغوى المحلى الذى صاغته كل لهجة لنفسها خلال عصور طويلة من التباعد والانكماش داخل حدود ضيقة كانت قائمة فى الماضى .

ويعكس ذلك هذا التبادل الثقافى والاعلامى الذى يعيشه العرب ، حتى ليمكن القول أن المثقفين فى العالم العربى قد حققوا نوعا من الوحدة اللغوية فى العربية التى يتخاطبون بها عندما يتلاقون ممثلين لاقطارهم المختلفة سياسيا واقتصاديا ، ولذا فان مستقبل اللهجات ووحدتها مرهون الى حد كبير بارتفاع المستوى الثقافى العربى ، وبتزايد الثقل النوعى لأجهزة التربية والاعلام وقدراتها على الاسراع بعملية التجانس اللغوى والفكرى العربى .(٧)

د ـ المغـــرب :

رغم الاختلاف الاجتماعى والثقافى بين الجزائر والمغرب فى فترة الاستعمار ، والتباين السياسى بعد الاستقلال ، وشيوع العربية نسبيا فى بعض المناطق المغربية منذ زمن ليس بالقصير أيام الهيمنة الفرنسية وبعدها فان اللسان العربى فى كلا القطرين يعانى من تفشى العامية المتأثرة بالفرنسية والبربرية وبقايا اللغات الافريقية التى تفد على شكل موجات منذ بسط الاسلام تعاليمه وثقافته فى غرب القارة السمراء .

ان غربة اللسان العربى فى الجزائر يماثلها فى المغرب التغريب الطارىء فى الشارع العام والمحال والمؤسسات التجارية ، وأنظمة التعليم التطبيقية . . . فقد تداخلت الفرنسية واللهجة

المختلطة من البربرية والعربية ، وصارت اللسان العام الذى تلامس مفرداته وعباراته حاسة سمع القادم الى تلك البلاد . . . وغدا أمر اللغة فى هذا الجزء القصى من العالم العربى أكثر تداخلا وتوزعا منه فى الجزائر ، واستحالت الثقافة الأصيلة أيام الموحدين والمرابطين ، فى هذا العصر الى أسر ثقافى فى ضوء السياسة التى ترتضيها المرحلة والمناسبة .

لقد شهدت المنطقة عصورا من التباهى الفكرى واللغوى حتى أمست ترد بضاعة المشرق الى المشرقيين أنفسهم ، بعد التنقية والاثراء باضفاء الروح المغربية التى تمازجت فيها خصائص البربر وأوروبا وافريقيا السمراء . .

ولعله بدون الاعتراف بدور تلك التكوينات البشرية والثقافية فى المغرب ، يكون أى بحث مهما روعى فيه المنهجية أو الدقة غير مكتمل الجوانب أو مستوفى العناصر . .

ان مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية ، وما فيها من احتواء مغـربى ، رغم المطالبة الجزائرية به لحاجتها الماسة . . . فان الواقع يقرر أن المغرب جدير به لاكتساح الثقافة الفرنسية من مرافق الدولة ، وللصراع الحاد بين المثقفين الذين نشئوا على الجرعات الثقافية المبرمجة بكل الاساليب العلمية الحديثة ، كما أن الصراع بين الهويتين العربية والبربرية كثيرا ما يطل برأسه فى المجتمعات المغربية ومع هذا فان القرار السياسى اللغوى هنا غير واضح ، كما هو الحال فى الجزائر . .

هـ ـ موريتانيـا :

لم يختلف حال العربية فى موريتانيا عن المغرب والجزائر ، فهى جميعا من ضحايا الاستعمار الثقافى والسياسى ، غير أن موريتانيا أكثر تمزقا فى الهوية البشرية والثقافية ، فهى بربرية عربية افريقية تتنازعها الانتماءات الجغرافية والتاريخية والسلالية ، مما يحمل بين طياتها نذرا لخلافات مستقبلية بين البيض والسود .

ان موريتانيا واقعة تحت التقلبات فى المنطقة ، فهى أقرب روحا الى المغرب ، ولكنها تتودد الى الجزائر خوفا من المضايقات الحدودية التى تثار عن طريق مشكلة الصحراء التى أصبحت شوكة واخذة فى ظهر التوحد المغربى ، ولذا كانت موريتانيا فى ظل الانقلابات العسكرية تتأرجح جزائريا ومغربيا . . . وان كانت باقية على حالها فى التوجه الثقافى واللهجى الذى امتص من الفرنسية والاسبانية .

وفى القطر الموريتانى أو الشنقيطى لهجات متعددة ، أشهرها الحسانية التى يزعم بنوها أنها

أقرب الى العربية الفصحى ، وقد استقبلت البلدان العربية والافريقية منذ مستهل القرن العشرين موجات من الجماعات الموريتانية باسم الشنقيط آنا . وحينا باسم المغاربة ، فتزاوجت ثقافتهم مع سواها فى المناطق التى استقروا بها ، لاسيما عن طريق علمائهم الذين عمروا كثيرا من المساجد وكتاتيب القرآن الكريم بالدراسات القرآنية والفقهية والأحاديث النبوية . . ولم يجدوا عسرا فى ذلك ، اذ أن معظم الاقطار الافريقية العربية تميل الى المذهب المالكى .

ان للصحراء ايقاعها المتميز فى الفكر الموريتانى ، وفى اللغة واللهجات ، ولعل التراث الشعبى هنا خير مثال صادق للبيئة وما فيها من تقاليد وعادات وظروف ضاغطة ، وفى بلاد الشنقيط عشرات الشعراء بالفصحى والحسانية .

أما من حيث القرار السياسى اللغوى فى هذا البلد ، فهو كبقية البلدان العربية ، حيث التناقض بين الشعار والتطبيق فى سيادة العربية وتعميم التعريب ، وتقريب اللهجات المحلية الى العربية الفصحى أو المتفاصحة . .

ومن هنا نقول : اننا اذا اعتبرنا شمال افريقيا أو افريقيا البيضاء من ليبيا الى المغرب ، من حيث القرب أو البعد من الاستعمال العربى السليم على جهة العموم فيكون الترتيب على النحو التالى :-

ليبيا ، تونس ، المغرب ، موريتانيا ، فالجزائر ، أما من حيث القرار السياسى والمستقبل فيكون الأمر مختلفا على النحو الآتى : -
الجزائر وليبيا ، فتونس والمغرب ، فموريتانيا .

o o o

٣- الدول العربية جنوب الصحراء :

أ ـ السودان :

لا فرق بين السودان القديم والسودان الحديث ، فى الجماعات البشرية والتوجه الثقافى والدينى ، وإن كان الفرق اللغوى واضحا على المستوى السياسى والاجتماعى والجغرافى والتاريخى ، فالمنطقة تعج منذ القديم الغابر بعشرات اللغات والثقافات .

وما يهمنا هنا هو السودان المعاصر الذى انضم الى جامعة الدول العربية عام ١٩٥٦ م وهو تاريخ يحمل معه سنة كاملة من الوضع المتفجر فى جنوب السودان ، وهو الحرب التى استمرت ثلاثة عقود تامة ، وخلفت ضحايا بشرية وتراكمات اجتماعية وتفاعلات ثقافية ولغوية ، وأبرزت توجهات فكرية متنافرة أفريقية وماركسية ، وزنجية ونيلية وقبلية ، وكلها تصب فى التيار المضاد للمد الاسلامى والعربى فى المنطقة .

ولقد حددت وثائق السودان الدستورية منذ الاستقلال أن اللغة العربية هى لغة الدولة الرسمية ، ثم أدخلت اتفاقية أديس أبابا فى بداية السبعينات تعديلا ، حيث جعلت اللغة الانجليزية لغة أساسية فى جنوب القطر ، الى جانب الاحتفاظ باللغة الرسمية ، وهى العربية ، فالقرار السياسى اللغوى واضح وجلى ، بالرغم من الضعف الذى اعتراه أخيرا ارضاءا للجماعات المتحاربة ، وتراخيا من الأجهزة التربوية والاعلامية فى الممارسة منذ فجر الاستقلال .

ان جنوب السودان يضم مجموعة لغوية أوسعها انتشارا ، لغة الدينكا أما اللغة العربية فهى لغة الاتصال والتخاطب بين المواطنين الجنوبيين وتوجد الى جانبها اللغة الانجليزية فى مدارس التبشير ، ومدارس الدولة . أما موقف الأديان فى جنوب السودان حتى عام ١٩٨١(١) فهناك ٦٥ ٪ من عدد السكان لا دينيون ، و ١٨ ٪ منهم مسلمون ، و ١٧ ٪ مسيحيون ، وينتشر الاسلام فى المدن ، وليس هناك أثر للمسيحية فى الأرياف ، وفى ضوء هذا فان الدعاوى التى يطلقها الانفصاليون فى جنوب السودان لا تقوم على أى مبرر موضوعى حضارى ، وهى دعاوى قد خلفها الاستعمار ، ورسختها ممارسات خاطئة من بعض الشماليين وفئات المثقفين الجنوبيين الذين يريدون أن يجدوا لهم دورا فى القيادة والسلطة ، ولا يضيرهم فى ذلك تفكيك الأواصر وتمزيق الدولة ، أو أن يعودوا بالسودان القهقرى ، الى الوثنية والبدائيات التى لا حصر لها ولا روابط بينها .

وقد أخذت اللهجة السودانية من روافد متعددة ومتنوعة ، من أقصى القارة الأفريقية ، شرقا وغربا وجنوبا ، حيث كان منذ قديم الزمان معبرا طبيعيا للحجيج ، ومهبطا سهلا فى ظروف الحروب والمجاعات ، وربما لم توجد لهجة عربية أخرى عاشت أحوال اللهجة السودانية ، عدا اللهجة الحجازية ، ولا سيما بين مكة والمدينة وجدة ، حيث يؤمها على مدار العام منذ انتشار الاسلام ، مئات اللغات واللهجات فى مواسم الحج والعمرة واستقدام العمالة بعد التوسع العمرانى .

فالسودان بوتقة تصب فيها منذ فجر التاريخ لغات غرب أفريقيا ووسطها وشمالها وجنوبها وشرقها ، فأثرت تأثيرا عميقا فى طرق النطق والتراكيب والدلالة ، وأفرزت بدورها ايقاعات تختلف من منطقة الى أخرى وبالتالى اختلف الايقاع الغنائى والموسيقى واللهجى فى سودان اليوم عن بقية الألوان الايقاعية فى المشرق العربى ومغربه . .

ورغم التقارب والتداخل بين مصر والسودان منذ الأزل بقى اللسان السودانى سودانيا والمصرى مصريا ، لأن مصادر التفاعل والانفعال فيهما تختلف اختلافا كليا : جغرافيا وبشريا وتراثيا ، ومع ذلك فان السودانى أسرع استيعابا للهجة المصرية من المصرى مع اللهجة السودانية ، وكذا الحال بين السودانى واللهجات العربية الأخرى ، والعرب مع اللهجة السوادنية ؟

ومن هنا فان أى تجاوز لواقع اللغة العربية فى السودان ، من قبل بعض السوادنيين المتأثرين بمجتمعات عربية أخرى نتيجة للهجرات والاغتراب والمسخ الذى عم بين القطاعات السودانية فى السبعينات ، أو أى تنكر لفرضية الروح العربية فى الواقع السودانى من قبل الأخوة الجنوبيين أو بعض التيارات التى بدأت تظهر فى جبال النوبة أو الشرق البجاوى أو الغرب الفوراوى أو الشمال النوبى ، ما هو إلا مغالطة مع النفس ، ونفاق يمارس بين الجماعات والمجتمعات ، ومهما يكن فمصير ذلك كله الى الاخفاق والافتضاح اذا سارت الأمور موضوعيا . . .

ب ـ الصومال :

لعل الانضمام الى جامعة الدول العربية فى وقت من الأوقات وشاح يسعى إليه الأقطار للحصول عليه ، درءا من الاعصار القومى الذى كاد يكتسح أفريقيا ، دون اعتبار لمقومات ميثاق تلك الجامعة ، أو أن الميثاق نفسه لم يضع ضوابط تحكم التوجه اللغوى ، والثقافى للأقطار التى تود الانضمام اليها . . . ويدخل فى هذا الاعتبار دولة الصومال ،

التى تكونت من بقايا الاستعمار الايطالى والانجليزى ، وقد بدأت حكومة الاستقلال الوطنية تخطو خطواتها الوئيدة لتتحسس طريقها نحو التذوق العربى لغة وثقافة . . . بعد أن جاهدت لتحظى بشرف الانتساب الى جامعة الناطقين بالعربية . . . وهى فى مجاهدتها تختلف عن موريتانيا وممانعة المغرب فى انتسابها ، وعن موقف بعض الاقطار العربية الآسيوية من دخول السودان عام ١٩٥٦ .

ولم تتمتع الصومال طويلا بالحكم الديمقراطى ، اذ سرعان ما أطبق عليها كابوس عسكرى ماركسى ، حيث اتجه بالنظام الى الشيوعية ، وجرد الشعب من مقوماته الدينية والثقافية وبعث الروح الصومالية القديمة كناهض للعربية ، وعمد الى كتابة اللغة المحلية بالحروف اللاتينية بعد أن كانت تكتب بالحروف العربية . . . وحينما قام نظام عسكرى شيوعى فى أثيوبيا الجارة ، واستعرت الحرب فى الأجادين ، حيث انتشار لغة الأمورو - تحول النظام الصومالى فى انتمائه السياسى الى الرأسمالية الأمريكية ، مع تمسكه بالفكر الماركسى ، ونهجه فى التضاد الثقافى والدينى .

ورغم الاهتمام العربى بالقطر الصومالى ، ومعاناته الاقتصادية والمساهمة فى تذليل الصعاب التعليمية ، ومن بينها التعريب - فان الأطر المحلية المتشبعة بالروح الماركسية ، ذات الانغلاق الاعتباطى ، تعمل على عرقلة ذلك بكل الوسائل .

ان الصومال من بين الدول الاسلامية التى تصل فيها نسبة الأمية نحو ٩٥ ٪ حتى عام ١٩٧٢ م ويرجع ذلك الى استخدام الحروف الصومالية المستحدثة ، وتعدد اللهجات المحلية عوضا عن العربية والانجليزية والايطالية وقد استخدمت تلك الصومالية بأخلاطها المختلفة ، لغة رسمية وقومية فى جميع الميادين ، ومنها الصحف والوثائق العامة والتعليم فيما دون المستوى الجامعى الذى ما يزال يتم أداؤه بالانجليزية والايطالية .

والسؤال هنا ، كيف يستقيم أن يكون قطر عربى عضوا فى الجامعة العربية ومؤسساتها ، ومنها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وهو غير عربى اللسان ، ويصر على ازاحة العربية من الأوساط الرسمية ؟؟

ان الصومال التى تشكل مع جاراتها فى القرن الأفريقى ، ما كان يعرف قديما ببر الزنج ، تناصب هى ورفيقاتها فى اثيوبيا وتنزانيا وكينيا العداء للمد الثقافى واللغوى للعربية والاسلام ، بواسطة العقائدية المتسلحة بالنصرانية والماركسية والنزوع الى الافريقية . والصومال دون غيرها من تلك البلدان تعيش متاهات فكرية وسياسية وثقافية منذ

السبعينات ، وقد عرى ذلك مصداقيتها بين الأقطار العربية ، الشىء الذى جعل انتماءها موزعا . . .

وفى ضوء هذا كله لا يتوقع حل قريب لقضايا اللغة العربية هناك لا تعريب التعليم ، ولا تعريب المجتمع ، وهو معضل من المعضلات التى تشكل امتحانا عسيرا للمنظمة العربية ، وهى التى تحاول أن تنشر اللغة القومية خارج نطاق الحزام العربى ، فى حين تدلل الصومال على عجزها داخل الأمة العربية نفسها .

ومن هنا فان الانتكاسة اللغوية فى الصومال ، أشد خطورة على جسم القومية العربية والثقافة الاسلامية ، من أى ارتداد حضارى آخر اذا أصبحت المناهج التعليمية هناك تأخذ طريقا تتوافق مع الوسيلة التربوية ألا وهى اللغة الصومالية ذات الحروف اللاتينية . . . ولما لم تكن للصومالية عقيدة غير الوثنية قديما ، والماركسية حديثا ، فهى فاقدة الروح تاريخا ، وعديمة الاحساس العربى والاسلامى سياسيا وجغرافيا . .

ولعل الشعوب العربية والاسلامية كلها تعلم بالتصفيات التى قام بها النظام الصومالى ، بين أئمة المساجد ومعلمى المدارس القرآنية وطلابها بحيث تحول تلك السياسة الاجتثائية بعد فترة من الزمان المجتمع الصومالى الى واقع غير اسلامى . . . وهو ما يتناسب تماما مع ما تصبو اليه نظرية المعلم جوليوس نايريرى فى تنزانيا .

ان القرار السياسى اللغوى فى الصومال يمثل التناقض الفادح لواقع سياسات جامعة الدول العربية ، فهناك الديباجة الدستورية حيث العروبة والانتماء القومى العشوائى الخالى من المضمون الحضارى والثقافى حيث التخلص من كل ما هو غير افريقى زنجى ، وهذا بالطبع له ما يبرره فى بعض الدول الافريقية غير المنضوية الى الجامعة العربية ، لكى تسعى الى استخلاص شخصياتها من بين الركام الاستعمارى الذى خلفته الأنظمة الفرنسية والانجليزية بعد رحيلها من القارة السمراء . . . ولكن ما المسوغ فى بلد عربى ؟؟؟؟

o o o

التعريب والاصلاح

هناك أكثر من معنى لاستخدام كلمة التعريب فى العالم العربى :
تعريب التعليم ، وتعريب مرافق الدولة ، وتعريب الثقافة ، وتعريب المصطلحات ، وقبل هذا كله تعريب القرار السياسى ، وهى عبارات تبرز باطراد من خلال المشكلة اللغوية والانسان العربى . . . وكثيرا ما تتقارب وتتداخل هذه العبارات فيما بينها ـ ولكنها فى نهاية الأمر قضية واحدة ، وهى سيادة اللغة العربية على جميع المستويات ، وفى مختلف ـ الاقطار ، وعامة المجتمعات .

إن الترابط بين العربية والاسلام ضرورى جدا ، فلكل كتاب مقدس لغة يعتز بها قارؤه ، فالعبرية والآرامية لازمتان فى التوراة والانجيل لا سيما عند الأحبار وذوى الثقافة اللاهوتية المتمكنة . . . والعربية هى لغة الكتاب المعجز أسلوبا وأحكاما ودلالات ، ولذا فهى لغة المسلمين قاطبة ، مع عدم اجبارهم على ترك لغاتهم الأولى ، ومعنى هذا فان أى احلال للعاميات العربية محل الفصحى ، يعتبر تمزيقا متعمدا لنسيج الأمة العربية ، وتشتيتا للانتماء الاسلامى .

وقد نادى البعض[١] بضرورة تعريب الانسان العربى نفسه . . لأنه من العبث أن نسعى لتعريب اللسان قبل تعريب الانسان . . فكرا وثقافة قناعة ومنطلقات ، حتى تتهيأ القابلية النفسية ، وذلك من خلال :

١ ـ تعريب القرار السياسى النابع من سلطة وطنية ، لأنه من أهم مظاهر السيادة لدى علماء الفكر السياسى المعاصر .

٢ ـ تعريب التاريخ ، باعادة تدوينه من جديد ، لكى يكون تفسير الأحداث التاريخية تفسيرا منسجما مع المواقف الوطنية ، دون تزوير فى الحقائق ، بتصويب الباطل وابطال الصواب ، ولا يتم ذلك إلا بتصحيح الروايات التاريخية ، قديما وحديثا ، لكى تكون صادقة معبرة عن الحقيقة التى تراها الأمة بأحداثها وتوتراتها وتناقضاتها السياسية والفكرية .

٣ ـ تعريب الثقافة والفكر : وهنا لابد من الاعتراف للشعوب العربية دون الحكومات ، بمقاومتها للمخطط الاستعماري في ميدان الثقافة المتضمن مطاردة اللغة العربية كلغة قومية قادرة على احياء المشاعر الوطنية ، وكلغة موحدة لمختلف الطوائف الدينية والتناقضات الاقليمية والقبلية . .

وبالرغم من كل المحاولات لاحلال لغة المستعمر في مجال الفكر والثقافة كلغة متفوقة ومتميزة ، فقد وجدت نفسها محصورة في بيئة خاصة ، وهي بيئة المتعلمين ، أما في مواقع الجماهير فهي معزولة تماما .

ان اللغة العربية خلال القرون الخمسة الأولى ، قد استوعبت نظريات ابن الهيثم في الرياضيات والبصريات ، وحدد بها نقطة الانعكاس في مرآة مقعرة لضياء وارد من جسم معين الى العين عن طريق ارجاع هذه المشكلة الى معادلة جبرية من الدرجة الرابعة في كتابه « المناظر » المترجم الى اللاتينية . . كما استوعبت فكر الرازي ونظرياته في الطب ، وسجل بها عبد الملك بن زهر مؤلفاته في الأمراض والأغذية ، وألف بها علي بن العباسي المجوسي في علم التشريح .

لقد كانت العربية في ذلك المستوى العلمي الراقي ، رغم حداثة التجربة في مجال العلم التجريبي الذي سبقتها فيه اليونانية واللاتينية .

ان الثقافة الحقيقية هي التي تنطلق من تجربة المجتمع ، وتنمو من خلال عطائه ، وتعبر عن مشاكله وقيمه وقضاياه ، وهي الثقافة التي لا ينفر منها المواطن ، لأنه جزء منها ، ولا يأنف من الانتساب اليها لأنها ثقافته ، ولا يرى فيها ترفا يصرفه عن مشكلاته ، لأنها نابعة من واقعه ، وبها يملك القدرة على أن يواجه الثقافات الأخرى مواجهة تفاعل وتكامل ، يأخذ ويعطي ولا يخشى على ذاته من أي اقتباس أو استلاب .

لقد أصبح تعريب المصطلحات العلمية وتوحيدها على مستوى الدول العربية ضرورة حضارية ومستقبلية ، فضلا عن كونه ضرورة ثقافية ولغوية قومية . . . وقد قطعت الدول العربية في هذا الصدد شوطا لا بأس به حيث وضعت المجامع اللغوية والمؤسسات التعليمية كثيرا من المصطلحات العلمية العربية ، كما تم تعريب الدراسات النظرية في معظم دول المنظومة العربية . .

وقد أقر مؤتمر اتحاد المجامع العربية الذي عقد ببغداد عام ١٩٧٣ م ألف مصطلح(٢) منها خمسمائة مصطلح كيمائي ، وخمسمائة مصطلح جيولوجي ، ومئات المصطلحات

النفطية والطبية والرياضية ، وقد مضى على ذلك المؤتمر الآن عقد ونيف من السنين أضاف فيه مكتب التعريب بالمغرب وبقية المجامع مئات المصطلحات فى كل علم وفن . . . ومعنى هذا فان العالم العربى لا ينقصه المصطلح العربى ، بقدر ما يفتقر الى شجاعة فى القرار السياسى ، والى تنفيذه السليم . . .

ان محاولات خصوم العربية والاسلام والمستهدفة تهوين شأن اللغة العربية ، ظهرت فى أكثر من جانب على مدى العهود الاستشراقية المختلفة حيث كان التنادى بالكتابة العامية ذات الرسم اللاتينى . . . وما كانت الدعوة الى تعريب المصطلحات العلمية منفصلة فى يوم من الأيام عن قضية نشر اللغة العربية ، حتى تصبح لسانا عالميا ، لا قوميا فقط . ولتحقيق ذلك لابد من الأخذ بما يلى : ـ

١ ـ ارسال البعثات التعليمية التى تدرس القرآن فى الدول العربية القاصرة عن نشر اللغة العربية فى مجتمعاتها ، ولا سيما الصومال وجيبوتى وجنوب موريتانيا وجنوب السودان ، وبقية الأقطار الأفريقية والآسيوية والأوربية ، بحيث تكون هذه البعثات على مستوى عال من الثقافة والكفاءة والقدرة على فهم تلك المجتمعات .

٢ ـ استقدام العلماء والدارسين من مختلف البقاع ، الى المجتمعات الاسلامية ، حتى يقفوا على الواقع الثقافى واللغوى والاسلامى .

٣ ـ وقبل هذا وذاك ، لابد أن يجود العربى النطق الصحيح بلغة الضاد والا كيف يستطيع فاقد الشىء أن يعطيه ؟؟؟

ولكى يكون نشر اللغة العربية فعالا فى مناطق التداخل اللغوى بالنسبة للأقطار العربية ، والمجتمعات الناطقة بغير اللغة العربية ينبغى أن يراعى فى المنهج الأسس العلمية الحديثة فى تعليم اللغات الأجنبية أو ما تعرف ببرامج اللغة الثانية ، وقد تنبهت الى هذا الجانب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم منذ بداية السبعينات ، حيث أنشأت معهد الخرطوم الدولى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، وفى هذا المعهد تخرجت أعداد من الأقطار العربية وغيرها ، كما تأسست معاهد مماثلة فى السعودية وسواها لاعداد معلمين فى هذا المجال .

وقد وضع الكتاب الاساسى للتعليم من قبل نخبة من الخبراء اللغويين والتربويين . . ومهما يكن من قصور قد صاحب الخطة ، وما يزال ، فان الترشيد المستمر

فى المناهج والوسائل التربوية ، كفيل بمعالجة كل ما يطرأ من صعوبات وتجاوزات فى هذا الصدد .

ومن بين ما تم من معالجات وضع معجم عربى أساسى لغير الناطقين بالعربية يتميز بالخصائص الآتية : ـ[٣]

١ ـ يبدأ بمقدمة ضافية تحتوى على لمحة عن تاريخ اللغة العربية ودورها فى الحضارة الانسانية ونظامها الصوتى والصرفى والدلالى .

٢ ـ يضم المعجم المواد اللغوية من حروف وكلمات وتعابير . . الخ .

٣ ـ يحتوى على المواد الموسوعية كأسماء الأعلام من أشخاص وأماكن وأحداث وكتب وأعياد وغيرها .

٤ ـ يرتب المواد طبقا لجذورها ، وتحت كل جذر تدرج المشتقات فى مداخل فرعية ، اضافة الى وجود كشاف فى أول المعجم ترتب فيه جميع المداخل على شكل فهرس ألفبائى ، بغض النظر عن جذورها .

٥ ـ يورد مصطلحات العلوم والتكنولوجيا الحديثة ، من كيمياء وفيزياء ورياضيات ونبات . . . الخ .

٦ ـ يقدم المعجم معلومات صوتية واملائية وافية ، حيث ضبطت المداخل بالشكل الكامل مع مراعاة التنوين وعدمه ، بالاضافة الى معلومات نحوية وصرفية كاملة .

وفى ضوء هذه الخصائص يمتاز المعجم على غالبية المعاجم العربية المتوفرة وهى : ـ

١ ـ استخدم الشواهد والأمثلة التوضيحية ، كلما كان ذلك ممكنا ومفيدا بحيث أن تعريف الكلمة الواحدة تتبعه عدة شواهد وأمثلة توضح دلالتها واستعمالاتها ، مقتبسة من القرآن الكريم والحديث النبوى والأدب ، شعرا ونثرا .

٢ ـ التزام المعجم بادراج التعابير الاصطلاحية والسياقية لكل كلمة كما يكثر من استعمال الرسوم والصور والخرائط والجداول ، كوسائل ايضاح بصرية تساعد على فهم اللغة العربية والحضارة الاسلامية .

وقد . لوحظ بعض نقاط ضعف فى هذا المعجم ، حيث عدم كفاية المعلومات الخاصة بالاستعمال والأسلوب التى تبين اذا كان استعمال الكلمة أو التعبير قديما أو حديثا ، فصيحا أو دارجا ، محظورا أو نادرا أو شائعا ، حقيقيا أو مجازيا ، أدبيا أو سوقيا . . . والسبب فى ذلك عدم توفر الدراسات اللسانية اللازمة فى هذا الميدان .

ومن الملاحظ أيضا فى المعجم عدم التخلص من الصياغة التقليدية للتعاريف فى المعاجم العربية ، لذا فلم تحقق الوضوح والسهولة التى يحتاج اليها مستعملو المعجم من غير الناطقين بالعربية .

التعريب والمصطلح

المصطلح العلمى هو رمز لغوى بسيط أو مركب ، يدل دلالة بينة على مفهوم أو فكرة فى ميدان من ميادين المعرفة ، ويعده أهل تلك المادة أو الفرع من الفاظهم المقبولة .

ويتكون المصطلح من جزءين ، أولها المفهوم أو الفكرة العلمية وثانيهما الرمز اللغوى الدال عليهما ، سواء أكان ذلك الرمز بسيطا أو مركبا من رمزين أو أكثر . . .

والرمز اللغوى والمفهوم عند الاصطلاحيين متلازمان لا يفترقان وتربطهما علاقة دلالية ، فلا يكون احدهما دون الآخر ، ومحور هذه العلامة : الفكرة أو المفهوم المراد التعبير عنه ، وما الرمز اللغوى فى هذه العلاقة إلا وعاء يجسد الفكرة ، لا وظيفة له سوى الدلالة عليها .

وأصل العلاقة بين الاصطلاح والمفهوم : التفرد والتطابق ، فينفرد كل اصطلاح بمفهوم يقف عليه ، ويختص كل مفهوم باصطلاح لا ثانى له . .

ومشكلة الاصطلاح العربى فى العصر الحاضر ليست خاصة بمجالات العلوم التطبيقية أو الانسانية غير اللغوية فحسب ، وانما هى عامة فى مختلف المستويات المعرفية ، ومن بينها المصطلح اللغوى نفسه . . . وقد تأخر العالم العربى فى العناية بموضوع المصطلحات ، فى حين أن أول معجم للمصطلحات اللغوية قد صدرت بلندن سنة ١٩١١ ثم بادر مجمع اللغة العربية فى القاهرة منذ ١٩٦٢ بوضع المصطلحات اللغوية العصرية بايعاز من عضوه اللغوى د . ابراهيم أنيس ، ثم تتابعت الجهود فى العالم العربى . . . ولكن حل ما توافر من مصطلحات لغوية فى العربية ، هو من نصيب علم الأصوات . . .

ومن أهم الأسباب التى أثرت تأثيرا واضحا على وضع المصطلحات اللغوية فى العربية : ـ[٤]

١ ـ تكرار الاختلافات القديمة فى المصطلحات الحديثة .
٢ ـ الاختلافات الناتجة عن مفهوم معروف لم يعتن به اعتناء خاصا حتى لا يردف بغيره .
٣ ـ الاختلافات الناشئة عن نزعتى المؤالفة والتجديد .
٤ ـ الاختلافات الناشئة عن اللغات المترجم منها .
٥ ـ الاختلافات الناتجة عن السياقات التى تبين أن معانى المصطلحات الحديثة ، تتكيف بحسب توزيعاتها ، وذلك شأن لم يؤخذ دائما بعين الاعتبار .
٦ ـ الاختلافات الناتجة عن محاولات تقريب المصطلح من الذوق العربى والنقل المباشر له .
٧ ـ الاختلافات الناتجة عن نوعى التعريب والترجمة لأسباب مرحلية .
٨ ـ الخروج عن المتعارف ولو كان مقررا ثابتا .
٩ ـ تحويل المصطلح من مفهوم حديث الى مفهوم حديث آخر .

فاذا كان هذا هو الموقف فى المصطلحات اللغوية ، فكيف يكون الحال فى العلوم الأخرى التى تتطور معارفها فى بيئات لغوية لا علاقة لها بالعربية ؟؟؟

○ ○ ○

هوامــــش

الفصل الأول :

١ ـ مجلة الرسالة سنة ١٩٤١ م العدد ٤١٨ ـ ص ٨٦٧ ـ ٨٦٨ مقالة للدكتور على عبد الواحد وافى : بعنوان : اللهجات العامية الحديثة .
٢ ـ ناقشنا هذه المسألة فى بحثنا : اللغة العربية فى أفريقيا .
٣ ـ مجلة الثقافة العربية ـ ليبيا ـ أكتوبر ١٩٧٦ م ـ د . حسام الخطيب ص ٥٢ ـ
٤ ـ المرجع السابق ص ٥٤ ـ وما بعدها ـ
٥ ـ جريدة الرياض ـ السعودية ، الخميس ١٧ أبريل ١٩٨٦ م ص ١٥ ـ مقالة : اللغة العربية أمام تحديات العصر ، ما هو مستقبلها العلمى ؟ عبد الكريم غلاب ـ من المغرب .
٦ ـ جريدة المدينة ـ السعودية ـ ١٣ رمضان ١٤٠٦ هـ ص ١٧

الفصل الثانى :

١ ـ انظر ـ احصاءات ص : ١١١ ـ ١١٩ من كتاب دراسات فى سكان العالم الاسلامى ، اعداد د . السيد خالد المطرى ، مطابع جامعة الملك عبد العزيز ـ ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .
٢ ـ راجع جريدة عكاظ ـ السعودية ـ الثلاثاء ٨ رجب ١٤٠٦ هـ ١٨ مارس ١٩٨٦ م ، ص ٩ ـ
٣ ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
٤ ـ أمثال مشيل عفلق .
٥ ـ فى كتابه : دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة د . كمال محمد بشر .
٦ ـ سكان العالم الاسلامى ـ د . السيد خالد المطرى ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ـ جامعة الملك عبد العزيز ـ ص ١٢٧

تونس :

١ ـ جريدة الجزيرة ، السعودية ـ الاثنين ١٤ أكتوبر ١٩٨٥ م العدد ٤٧٦٤ ـ ص ١٢ .

الجزائر :

١ ـ ملحق جريدة السياسة الكويتية ، السبت ٢٩ / ٣ / ١٩٨٦ م ، ص ٤ مقابلة مع السيد مولود قاسم نايث بلقاسم ، عضو الأمانة الدائمة للجنة المركزية ، والمكلف بشئون المجلس الأعلى للغة العربية .
٢ ـ محمد بن رجب ، فى ملحق الأربعاء لجريدة المدينة السعودية ص ١٣ ـ ١٣ رمضان ١٤٠٦ هـ ، حول روايتى : العشق والموت ، أو اللاز ، واللاز للطاهر وطار
٣ ـ د . ابراهيم السامرائى ، فى كتابه : فقه اللغة المقارن ط ١٩٦٨ م ص ٢٢٥ .
٤ ـ سعيد الأفغانى فى كتابه : حاضر اللغة العربية ، ط بيروت ١٩٧١ م ص ٢٢٥ .
٥ ـ مجلة الثقافة العربية ـ الليبية ـ أكتوبر ١٩٧٧ م ص ٧٠
٦ ـ الاستاذ أحمد توفيق المدنى ، فى كتابه الجزائر ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧ ص ١٣٤ .
٧ ـ مجلة الثقافة العربية ـ الليبية ـ السابقة ص ٧٤ مقالة للدكتور / عماد حاتم .

السودان :

١ ـ الكتاب السنوى للتبشير ، الصادر عن مجلس الكنائس العالمى .

التعريب :

١ ـ د . محمد فاروق النبهان ـ الرباط ـ جريدة الشرق الأوسط الأثنين ٢٤ / ٦ / ١٩٨٥ م ص ٩ ـ

٢ ـ جريدة الشرق الأوسط الأربعاء ٢٣ / ٤ / ١٩٨٦ م ص ١٢
عرض لبعض القضايا التعليمية من د . أحمد الجوارى وزير التعليم فى العراق سابقا ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

٣ ـ جريدة الشرق الاوسط الثلاثاء ٢٦ / ١١ / ١٩٨٥ م ، ص ٦ حوار مع د . على القاسمى .

٤ ـ العربية والحداثة ـ د . محمد رشاد الحمزاوى ـ تونس ١٩٨٢ م ص ٥٨ وما بعدها .

القسم الثانى

اللغة العربية

بين

القومية والعقائدية

قراءة فى خارطة اللغة العربية :

عاشت اللغة العربية فترة من الزمان لم تستطع فيها أن تعبر المياه المحيطة بتخوم شبه الجزيرة ، حتى جاء الاسلام فى مطلع القرن السابع الميلادى ، ولم يصل هذا القرن غايته ، حتى كانت تعاليم الاسلام واللغة العربية فى صراع حاد فى أرجاء آسيا وفى أوربا وأفريقيا وكان القرن الثامن الميلادى ، الثانى الهجرى فترة تعميق وتدقيق وتفاعل مع واقع البلاد التى استقبلت جديد الحياة وحضارتها المتمثلتين فى الاسلام واللغة العربية .

ولم يتقهقر هذان المعلمان إلا حينما تخلى المسلمون عن واجبهم نحو دينهم فكان تفكك الدولة فى المشرق إلى دويلات كما تلاشت أختها فى المغرب تدريجيا ، حتى ارتدت الى أخلاطها الدينية واللغوية فيما قبيل الاسلام وأصبحت العربية فى انحسار مستمر كلما تقاصرت ظلال القرآن الكريم فى قطر ، وأطلت أدواته التعبيرية من جديد بعد ما بليت ، وهب أهلها ببعث الحياة فيها بالتعليم والتطوير .

وصارت اللغات الأخرى فى نهضتها ترمز إلى الوطنية وتتفاعل مع الحياة والعلوم طبقاً لتفاعل أقوامها وتسابقهم مع الزمن علهم يسترجعون بعضاً مما افتقدوه أيام انتشار الاسلام بينهم وذيوع العربية فيهم ، وكانت العربية مقيمة كإقامة (عسيب) دون احساس قومها وليتهم تفاعلوا معها كما تفاعل امرؤ القيس مع جبل عسيب .

إن الحديث التاريخى فى هذا الصدد يطول ، ولكن الذى نود الاشارة إليه هو أن المناطق التى اختفى فيها الاسلام قد توارت أيضاً فيها العربية ، وكان جنوب خط الاستواء وغرب البحر الأبيض المتوسط وشماله خير شاهد فى ذلك وقد بقى الاسلام مطلا بنسب متفاوتة فى بعض الأقطار . .

كما نلحظ ذلك فى غرب أفريقيا ، ويلاحظ أن بعث القوميات ولغاتها كان عاملا جوهرياً فى استبعاد العربية من المسرح العام كما هو الحال فى تركيا وايران وغيرهما .

الاستعمار وأثره اللغوى فى الأقطار العربية :

وقد توزعت الأقطار العربية فيما بين القرنين التاسع عشر والعشرين ، إلى محورين رئيسيين من الاستعمار الأوربى يحملان تراثاً حضارياً فى العصر الحديث ، وهما انجلترا

وفرنسا ، بالاضافة الى ايطاليا وأسبانيا ، وقبل هذا كله كان الحكم التركى الذى انتهى بانتهاء الحرب العالمية الأولى وقد أنتج هذا التنوع الاستعمارى معطيات لغوية وحضارية متعددة الروافد والبيئات فاصطبغت لبنان وسوريا ودول المغرب العربى بالفرنسية .

وكانت الايطالية واضحة فى ليبيا والصومال والاسبانية فى موريتانيا ، أما الثقافة الانجليزية فانتشرت فى معظم الأقطار الأخرى كما كانت الايرانية (الفارسية) والتركية قد خلفتا آثاراً واضحة من المزيج اللغوى .

وكانت لهذه اللغات تأثيراتها الواضحة فى التفكير العربى كل فى إطاره التاريخى ، ولعل الفارسية هى التى أثرت بدور كبير ، ألفاظاً وأفكاراً خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة . وكانت اللاتينية أم اللغات الأوربية الحديثة لها دورها الكبير فى مجال الفكر ، وللتركية أثارها فى مجال الادارة والحكم ونواحى المجتمع ، خلال فترة الحكم العثمانى .

وقد نشأ المتعلم العربى المعاصر فى محيط الحضارة الغربية ووجد الأخذ والعطاء فى أكثر من مجال بغير لغته القومية بل باللغات الأوربية وهى الأدوات التعبيرية التى إذا عرفها المستعمر (بفتح الميم الثانية) اعتبر متميزاً على أبناء مجتمعه غير الملمين بها ، وحظى هذا العارف بالمكانة المرموقة والوظيفة المحترمة والاعتبار بين الطبقات (قارن بين المتعلمين فى المعاهد الدينية والمتعلمين فى المدارس الحديثة) .

ونجد الشعوب المستعمرة تناضل من أجل رفع الظلم والاضطهاد ، ونيل الاستقلال ، وتدفع فى ذلك أرواحها ، وينتهى نضالها بخروج الحاكم الاجنبى ، ولا تمانع بعد ذلك أن تتبنى تراث مستعمرها الراحل وتتحدث بلسانه ولا تتنبه إلى خطورة ذلك إلا قلة من كل شعب (لاحظ رجوع الهند إلى الهندية ، بعد استخدامها الانجليزية لغة رسمية ثم عزوف بعض الدول الأفريقية عن تراث المستعمر وبعث القوميات الافريقية وتنظير الزنجية) .

وفى أقطار الوطن العربى بشعوبها وأنظمتها المتعددة ، ما زالت الاكثرية من المتعلمين والعاملين فى ميادين البحث والدراسة والتأليف ترى أن العلوم التى ترعرت فى البيئات الأوربية ، من غير الممكن أداؤها بالعربية . وذلك لعجز العربية ـ كما يدعون ـ وعدم استيفائها المصطلحات العلمية وهذا الزعم قد محضته عوامل ، أهمها :

١ ـ التقدم الحضارى فى أوربا ، وكونه مرتبطاً باللغة ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا كان أداء المجتمع العربى باللغة نفسها .

٢ ـ التأخر والجهل في الأقطار العربية .
٣ ـ عدم إجادة المتعلمين العرب اللغة العربية نسبة لعدم تطوير مناهجها .
٤ ـ تلقى المتعلمين العرب كثيراً من أنواع المعرفة (الكيمياء والطبيعة والرياضيات الخ) بلغات أجنبية .

هذه هي بعض الأسباب المباشرة لتعصب القائمين بالبحث والتدريس الجامعي من العرب إلى اللغات التي تلقوا بها تخصصاتهم العلمية في أوربا وأمريكا .

العزلـة واللغـة :

ومن الأقطار العربية في العصر الحديث ، ما تناءت عن الاستعمار ، وعاشت بعيدة عن السيطرة اللغوية في فكرها ونمط حياتها ولسان أبنائها ، كالسعودية واليمن الشمالية ولكنهما أخذتا من غيرهما بعض أساليب الحياة في المناهج التعليمية وغيرها ويعتبر هذان القطران قد عاشا في عزلة حصنتها ضد التأثير اللغوي الوافد مع الاستعمار ، ولكن تلك العزلة لم تكن إيجابية نحو تقدم اللغة العربية والارتقاء بها إلى لغة علمية .

ومن بين الأقطار التي عاشت منعزلة عن أخواتها العربيات الصومال فهذا البلد قد استقبل وفداً لغوياً متمثلا في الانجليزية والايطالية ، وكذلك في الفرنسية في جيبوتي . والصومال بالاضافة إلى ذلك محاط بعازل لغوي أفريقي من أثيوبيا وكينيا وهذا عنصر هام في إعاقة التعريب بالصومال .

والعزلة في الفقه اللغوي ، تعتبر أحدى عناصر تكوين اللغات واللهجات وتغريب اللهجة عن اللغة الام عامل من عوامل استقلالها وصيرورتها لغة . والصومال مثال حي في هذا الصدد . إذ استقبل العربية في فترة تاريخية غابرة نسبياً ثم فصمت علاقاتها بالوطن العربي بعد استبعاد الطابع العربي الاسلامي من حول هذا القطر ـ أي أثيوبيا وساحل كينيا ـ فكان أن انعدم الاحتكاك الثقافي المباشر مع أخواته العربيات .

ولعل طابع العزلة النسبي عام في معظم الأقطار العربية بتخطيط استعماري ذكي ، لاستحداث التنافر ، واذكاء روح الاقليمية الضيقة وتشجيع النوازع العنصرية والتفاخر القبلي الأمر الذي أدى إلى التعامل مع الاستعمار بنوعيه القديم والحديث بطريقة أكثر سهولة واطمئناناً ، ولذا كان وما زال استقدام الخبرة من الأقطار المستعمرة عاملا مهماً في التطوير والاستصلاح . إن الوطن العربي قبل انضمام الصومال وموريتانيا إلى جامعة

الأقطار العربية ، كان شبيهاً بصورة طائر قد أفرد جناحيه الأول فى آسيا والثانى فى شمال أفريقيا وكان السودان ومصر يشكلان جسم هذا الطائر ولعل هذا التوافق الجغرافى الطبيعى بين الأقطار العربية وشكل الطائر ، خير صورة تساعدنا على تتبع واقع التعريب من خليج عمان إلى جزر الكنارى فى المحيط الاطلسى ، ونجد فى هذا التتبع أن خط الأقطار العربية ، غالباً ما يسير مع الصحراء فى امتدادها الطويل !!! .

وربما أرادت الطبيعة ـ بعد إرادة الله طبعاً ـ أن تجعل هذه الأقطار متقاربة فى التربة والمناخ فى أغلبها لتتغذى العربية من واقع منبتها الصحراوى ، هذا الواقع الذى أثرى اللغة بمئات الألفاظ عن الصحراء وما يتصل بها من عوائق انتشار العربية واستعمالها :

أ ـ فى شرق أفريقيا ، تمثل الاثيوبية (أو الحبشية) مع السواحلية واللهجات المحلية فى كينيا وأوغنده وتنزانيا ، عائقاً يمنع العربية أن تنداح فى القارة السمراء . والسواحلية هى لغة شرق أفريقيا مطعمة بنسبة كبيرة من الألفاظ العربية وهى منسوبة إلى سواحل القارة وقد غيرت كتابتها من الحروف العربية إلى اللاتينية كما حدث فى التركية وغيرها من لغات الشعوب الاسلامية . وكان هذا التغيير بتخطيط من المستعمر لاستبعاد الصورة العربية بجميع أشكالها من ذهنية الانسان الافريقى . . . وقد اشتد التعصب للسواحلية واللغات الوطنية بدرجة كبيرة بعد ظهور الدعوة إلى القوميات ، ولكن هذا التعصب فى الواقع ليس مضاداً للانجليزية وهى لغة المستعمر هنالك قبل استقلال تلك الأقطار ، وإنما القصد من ذلك إيقاف التوغل الاسلامى العربى .

ب ـ وتعتبر اللهجات المحلية فى الأقطار العربية من المهددات لحركة التعريب الشامل فى جميع المرافق على مستوى لغوى رفيع واللهجات المحلية هذه على نوعين : لهجات عربية ـ ولهجات غير عربية .

أما اللهجات المحلية العربية فهى العامية فى كل قطر عربى ، وشائج القربى بينها والعربية الفصحى أكثر من ظواهر الفرقة والانفصال . وهى التى تختلف مع الفصحى فى النبر والتغيم والمساوقة والمصافية ، وفى الدلالة وتركيب الجملة لأسباب محلية ولكنها تتفق مع الفصحى فى استعمال المفردات العربية وكثيراً من طرائق اشتقاقها وأخيلتها وروحها وهذه هى التى غنى بها بعض الأدباء من الشعراء والقصاصين والكتاب . وأشاعوا دعواهم بأنهم يعبرون عن قضايا الحياة بالعامية لواقعيتها ، وسواء صدقوا فيما زعموه أم تذرعوا به لاستبعاد الفصحى : فالواقع أن الفصحى ستكون غريبة غير مفهومة وسط قطر تكلم وكتب وفكر ، بالعامية .

أما اللهجات المحلية غير العربية فهى التى لم تكن بينها والعربية علاقة سوى وجودها فى الاطار الجغرافى للأقطار العربية وهى كثيرة فى معظم الأقطار العربية وهنا يبدو لنا أيضا نوعان من اللهجات :

١ ـ لهجات لاقليات غير عربية .
٢ ـ ولهجات لجماعات عربية بعدت ـ لعزلتها عن السمات العربية لأسباب استعمارية وتعليمية واجتماعية .

ولعل أكثر اللهجات أثراً فى إعاقة حركة التعريب ذلك النوع الذى يتكلمه العربى وهو ليس من العربية فى جميع الظواهر اللغوية : الصوتية والتعبيرية ، والدلالية .

وهذه الأنماط اللهجية هى التى جعلت أبناء الأقطار العربية لا يلتزمون التفكير بلغة عربية يفهمها أبناء القطر العربى الآخر .

ولعلنا نلاحظ ذلك أحياناً فى مجال الصحافة وهى التى تستخدم العربية ، فالقارىء يجد عسراً فى أول الأمر لفهم دلالات بعض الألفاظ لا سيما فيما استحدث استعماله فى مجال السياسة والأدب والاجتماع الخ ـ (قارن بين الصحف الآتية على سبيل المثال : النهار البيروتية ، والجهاد (الليبية) والأيام السودانية والأهرام المصرية والمجاهد الجزائرية ، وعكاظ السعودية الخ) .

أما فى مجال الدوريات الشهرية والربعية والسنوية فحدة التفاوت تقل كثيراً (قارن الثقافة العربية فى الجماهيرية والخرطوم فى السودان ، والعربى فى الكويت ، والاقلام فى العراق وتطوان فى المغرب والآداب فى بيروت والهلال فى مصر) .

جـ ـ وتعتبر الجماعات التى تتحدث غير العربية فى الأقطار العربية نموذجاً لاخفاق السياسة الرسمية والتخطيط التربوى والاجتماعى . فإذا اعتبرنا أن التاريخ المشترك بين الأغلبية والأقلية قد بدأ من خروج المستعمر فقط كان ينبغى أن يتم التقارب وتتلاشى التفرقة بين القسمين بعد مضى عقدين أو ثلاثة من الزمان لاسيما وأن سياسة الدولة موضوعة لأهداف موحدة ومجمل القول هنا أن هذا الجانب أدرى به السياسيون قبل العاملين فى مجال التعريب اللغوى والتعريب هنا يتطلب مرحلتين : الأولى ارتضاء الأقلية بالعربية باعتبارها اللغة الأولى . والثانية تعميم التفكير بالعربية والتعامل بها فى جميع الميادين ولعلهما مرحلتان تتطلبان الكثير .

ان الأمر كما أشرنا اليه فيما سبق يستدعينا أن نقف قليلا حول طبيعة اللغة العربية .

فالوضع الذى عاشته العربية وتعيشه الآن لو كان غيرها فيه لاضمحلت وأصبحت فى عداد اللغات التاريخية فقد اصطرعت فى بادىء الأمر مع اليونانية واللاتينية والفارسية والمصرية ، والارامية وغيرها من لغات الحضارة الانسانية وأزاحتها عن المسار الحضارى والآن قد انتهت تلك اللغات وأصبح معظمها تاريخاً للغات حديثة تفرعت منها أما العربية فهى هى بقواعدها وألفاظها وتراكيبها ، وطرق اشتقاقها وقياسها مع مراعاة ما استحدثه العصر فى مجال العلوم والصناعة ، والثقافة والاجتماع .

وقد اهتم المؤلفون والباحثون فى بلدان العالم الأخرى ، باستعمال لغاتهم القومية . مهما كانت درجة حداثتها ومحليتها فى مجال الفكر وغيره وكان للسياسيين القدح المعلى فى هذا الصدد ، إذ أنهم بمخاطبتهم للجماهير والخاصة يبعثون فى اللغة وأساليبها روحاً مشعة جذابة تجد الذيوع والصيرورة بمجرد تفوه الخطيب السياسى ببعض الكلمات والعبارات وإن كانت فارغة المحتوى .

وإذا كان غير العرب من السياسيين قد دفعوا بلغاتهم قدماً بين أقوامهم فإن السياسيين العرب يستعملون العامية المحلية بين شعوبهم كما يستخدمون اللغات الأجنبية حينما يخرجون عن النطاق العربى ولعل كثيراً من سوء التفاهم فى المؤتمرات العربية ، مرجعه إلى التفاوت بين المتحدثين فى اتقان العربية وإلى الاختلاف فى دلالات الألفاظ ومضمون التعبير من حيث إرادة المجاز أو الحقيقة لذا فالشك وسوء الظن يعتوران القرارات ويجمدانها بعد الفراغ من صياغتها .

ومناهج التعليم العام فى الاقطار العربية بوجه عام منفصلة فى تخطيطها عن مناهج التعليم العالى فحينما يركز رجال التعليم العام على تدريس المواد المختلفة باللغة القومية نجد الكليات العلمية فى معظم الأقطار العربية تتخذ اللغة الأجنبية التى كان المستعمر يتحدثها وهنا يختلف كل قطر عن آخر طبقاً لاختلاف المستعمر .

وقد تقاسمت الانجليزية والفرنسية الحياة الثقافية فى الوطن العربى . وفى الوقت الذى بدأت فيه وزارة التربية مراجعة مناهجها فى التعليم العام أولا ثم مرحلة التعليم العالى كان غياب التخطيط والبرمجة والترشيد يشكل عائقاً أساسياً فى استثمار التعليم الحديث استثماراً فعالا .

ومن الغريب أن يلاحظ دائماً أنه كلما اشتدت العناية بالمناهج الدراسية وبرامجها

وتحديثها يكون ذلك على حساب موقف القرآن الكريم فى برامج الدراسة وذلك ازورارا عن الطابع الدينى فى التعليم العام والعالى . واللغة العربية لم تكن فى يوم الأيام سهلة التعليم بمنأى عن القرآن الكريم فهذا الكتاب بما فيه هو الذى أدى إلى حفظ العربية وقوميتها وبدونه يصعب تقويم اللسان فى الأداء اللغوى السليم .

لقد جوبهت حركة التعريب فى أى قطر عربى بصعاب متعددة ، طبقاً لتنوع الأسلحة المستعملة فى كل عصر وكل مجتمع ، وحينما نذكر التعريب يمثل أمامنا عدد من الأدوار :

أ - دور المجتمع وهو ضرورى لتيسير التفاهم بين أفراده والعمل على اماتة اللهجات التى تبتعد كثيراً عن العربية ونجاح هذا الدور يمهد للدور التالى :

ب - دور التعليم العام وهنا يتطلب الموقف العناية القصوى بالعربية بحيث يكون واضعو المناهج الدراسية من الذين مارسوا التدريس فى المراحل المختلفة ، حتى يكون الربط قوياً بين مرحلتى التعليم العام والتعليم العالى :

جـ - تعريب مرافق الدولة فخريجو التعليم العام يستطيعون القيام بالعمل فى معظم مجالات الحياة وبنجاحهم يشكل الواقع المعاش فى المجتمع بين عامة الشعب عاملا ضاغطاً ومساعداً للتطبيق الدقيق فى مرحلة التعليم العالى .

د - دور التعليم العالى :

وهنا ينبغى أن يكون هناك الزام من الدولة على تنفيذ ما توصلت إليه المجامع اللغوية والعلمية ومكتب التعريب من نتائج فى حقل المصطلحات .

ولعل هذه الأدوار الأربعة بتدرجاتها صالحة للتطبيق بالنسبة إلى كل قطر ما زال فى طور الاستقلال .

ولما كانت الأقطار العربية قد استقلت كلها سياسياً فلعل البعض الذى ما يزال يمثل فيه الانفصام اللغوى بين المجتمع ومراحل التعليم ومرافق الدولية يمكن أن يأخذ بهذا الاطار ولكن الشىء المهم فى مثل هذا الموقف هو القرار السياسى وتجربة الجزائر خير مثال لأثر الدفع السياسى فى حركة التعريب .

إن قضية التعريب لم تحل حتى فى بلدان المجامع اللغوية والعلمية (مصر والعراق

وسوريا) فهناك عدد من الكليات الجامعية ما زالت فيها اللغات الأخرى تشكل لغة الدراسة والبحث .

وهذه المعضلة تبدو بصورة أخرى فى بعض الأقطار التى انضمت أخيراً إلى الجامعة العربية ، حيث أن العربية تعتبر فيها لغة ثانية فى المجتمع ومراحل التعليم .

إن الاعتزاز القومى والشخصية السياسية من الأمور التى تساعد على فعالية اللغة القومية فى المجالات العلمية فدول شرق أوربا استطاعت أن تدرس كل جديد فى الحياة باللغات الوطنية وايطاليا واسبانيا ودول أمريكا اللاتينية وشمال أوربا وغيرها لم ترتكن إلى الانجليزية والفرنسية فى حياتها الاجتماعية والعلمية بل إن الهند حديثاً قد استعاضت عن الانجليزية بلغتها القومية فى حياتها الرسمية ومعاهدها العلمية . . .

إن الواقع اللغوى فى الاقطار العربية يبرز بوضوح التداخل اللهجى وتعدد المؤثرات اللغوية الوافدة فالاقطار الافريقية والآسيوية غير العربية تتاخم العالم العربى من جميع جهاته وهى تبتعد كثيراً فى لغاتها فهناك ايران وتركيا فى آسيا وقد لعبتا أدواراً سياسية واجتماعية وثقافية لا مجال لانكارها ، أما فى أفريقيا فنجد الحبشة وكينيا ويوغنده وافريقيا الوسطى وتشاد والنيجر والسينغال وزائير بالاضافة إلى متاخمة المياه الاقليميـة فى الأبيض المتوسط والمحيطين الأطلسى والهندى وهذه الاقطار تتحدث بألسنة متعددة موزعة بين أسر لغوية بعضها قد تحدد والبعض الآخر ما زالت الدراسات تبحث عن ملامح انتمائها . هذا من جانب ، ومن جانب آخر فالاقطار الافريقية التى تجاور الأقطار العربية كانت واقعة تحت الاستعمار الأوربى وقد خلفت اللغات الاوربية واللغات القومية لتلك الشعوب مزيجاً لغوياً من أسر متباينة هندية وأوربية وحامية وأفريقية بالاضافة إلى الاسرة السامية التى تنتمى اليها العربية .

ومن هذا المزيج اللغوى النادر يمثل أمامنا ضرورة تقسيم الأقطار العربية إلى مناطق لغوية تبعاً للظواهر اللغوية المتميزة فمثلا هناك :

١ ـ منطقة التأثير الانجليزى واللغات الافريقية .
٢ ـ منطقة التأثير الفرنسى واللغات الافريقية .
٣ ـ منطقة التأثير الانجليزى واللغات الآسيوية .
٤ ـ منطقة التأثير الفرنسى واللغات الآسيوية .
٥ ـ منطقة التأثير الايرانى التركى .

فإذا تم هذا التقسيم أو أى تقسيم آخر واضح الفعالية نستطيع أن نصل إلى مرحلة الدراسة عن طريق المسح اللغوى لواقع التعبير فى الاقطار العربية وبه تتضح لنا سبل معالجة التعريب بأساليب متخصصة تتناسب مع الظروف الخاصة لكل منطقة وعسى أن يؤدى هذا المسح اللغوى دوراً إيجابياً فى تنفيذ حركة التعريب .

لقد كانت الادارة حتى منتصف العصر الأموى تسير فى الشام والعراق والمناطق الاسلامية الأخرى بلغات غير العربية ، كما كانت الحركة العلمية مرتبطة بالرومية والاغريقية والفارسية والآرامية ولكن استطاع عبد الملك بن مروان أن يبدأ التعريب فى دواوين الدولة المختلفة ثم كانت القفزة الكبرى للتنظيم الإدارى فى العصر العباسى واكتمال التعريب فى جميع الدواوين التى تماثلها الآن الوزارات .

وفى هذا العصر أى العباسى كان التعريب فى مجال العلوم والتأليف فيه بالعربية قمة الابداع الاسلامى ، وتم صهر القوميات فى قومية واحدة ، واستطاع الاسلام توحيد الأداة التعبيرية ، ولعبت العربية دورها الحضارى والعلمى باقتدار فى مجالات الطب والكيمياء والرياضيات الخ ، ورغم رهبة الموقف فى بدئه وصعوبة التناول فى النقل والترجمة ، فقد استطاع السلف الصالح أن يأخذ بالسفينة إلى بر الأمان . وقد اصطلحوا للعلوم المختلفة بألفاظ عربية أو أجنبية معربة ، وكانت هذه المصطلحات هى التى عبرت بها أوربا من عصر الانحطاط العلمى والحضارى إلى ما هى عليها الآن من تقدم ورقى .

إن العربية قادرة على العطاء الوافر إذا كان أبناؤها على قدر وافر من الاخلاص والجد للعلم واللغة .

وليست هذه الاشارات السريعة بالحنين إلى الماضى ورثاء أمجاده ، ولكن الواقع الماثل أمامنا الآن فى معظم مجالات الحياة يشدنا بعنف كى نقف مرة ومرات حول قضية التعريب . . . .

o o o

الايديولوجية أو العقائدية :

لقد أصبح من الاستعمال الشائع أن الايديولوجية تطلق على العقائدية والعقائدية جمع عقيدة بعد اللاحقة الخاصة بالمصدر الصناعى ، ومن هنا فان المصطلحين يُعْنَى بهما التوجه الفكرى المنطلق من مسلمات دينية أو ماركسية من خلال الوعى الافريقى المتنامى بعد الاستقلال .

وهذه الايديولوجية كما عرفها بعض الافارقة(١) . وعاء حار للأفكار المقبولة شعبيا ، أو الرائجة عن بنية المجتمع والعمليات التى تجرى فيه وتفسر تاريخ المجتمع ، وتعطينا أساسا لتقييم الخبرة الجديدة . . . . وتجسد هذه الايديولوجية الأهداف والقيم التى يقرها المجتمع .

ان افريقيا ليست بها ايديولوجية واحدة ، فاذا نظرنا اليها فى اطار قادتها السياسيين الذين هيمنوا على فكر ثقافة أبنائها نجد تباينا كبيرا بين أفكار أولئك القادة ، فجميعهم منظومون فى أنساق المسيحية المتنوعة فى غرب القارة وشرقها ، مع الاتكاءات المتفاوتة على الاشتراكية الماركسية ، فليو بولد سدار سنجور الفيلسوف ، وجولويوس نايريرى المعلم وكوامى نيكروما الثائر ، قد تلقوا تعاليمهم ونهلوا ثقافاتهم فى محيط كنسى ، ثم أشربوا الأفكار الاشتراكية كبديل مناهض للاستعمار الحاكم ، وليس للمسيحية وطقوسها . . . وقد أعلن بعضهم حروجه عن الواقع الافريقى الذى بسطه الاستعمار ، بارتداده الى ما قبل المستعمر حيث الوثنية والأعراف الاجتماعية والآداب الشفهية ، وهى مقدمات لتمهيد المجتمع الى كل فكر جديد وافد ومن بينه الاشتراكية . . . وقد تناسوا أن هناك واقعا أصيلا قبل الاستعمار الأوربى فى غرب القارة وشرقها ، ألا وهو الاسلام والثقافة العربية ، الا أنهم قد عزفوا عن التعامل معها لخلفياتهم الكنسية التى تشدهم شدا ، رغم شعارات الثورية والقومية والاشتراكية التى تضمهم مع رموز العالم العربى خلال الخمسينات والستينات وبداية السبعينات ، فكانت قمم المؤتمرات أو مؤتمرات القمم ، فى الدار البيضاء بالمغرب ، وموناكو بمالى ، والقاهرة بمصر ، واديس أبابا باثيوبيا وفى كل ذلك كان اللسان الناطق من عقائديى جنوب الصحراء والقوميين فيها غير عربى ، حتى من الناطقين بالعربية ؟

ان الدين مهما يكن من أمر الخلاف فيه ، فهو مثير محرك له قوة تفوق تحريك المثيرات الأخرى ، فى المواقف الاجتماعية والقومية كما أن التعبير عن مقولات ذلك الدين لابد أن يكون بلغة من اللغات ، ولكن يحاول المهيمنون على أمور الثقافة والفكر فى القارة السمراء أن يقللوا من حقيقة ذلك ، وان كان بعضهم يضع المسألة فى اطار ارضائى توفيقى . . .

يقول سنجور عن الديانات(٢) وهو فيلسوف الزنوجة والاشتراكية الافريقية والذى استفاد من الفكر الوجودى الاشتراكى ، اذ كان على علاقة فكرية حميمة بجان بول سارتر : « منحنا الاسلام والمسيحية قيما روحية بديلة عن النزعة الحياتية الزنجية Negro Animsim » وهما عقيدتان أكثر احكاما أو أكثر عقلانية ، أو ان شئت اكثر اتساقا مع العصر الحديث » . . . وهكذا لكى لا يصطدم بتوجهات بعض القادة المتمسكين بالاسلام أو المسيحية ، ولكنهم لا يرفضون الاشتراكية وربما النزوع نحو الزنجية .

لقد خرج الاستعمار من افريقيا بشخوصة البشرية فى الادارة والحكم ولكنه أبقى كل شىء بعد ذلك ، فى أثواب مختلفة تتناسب مع كل جماعة مهما كانت درجة عدائها للمستعمر ، ومن هنا كان تمزيق القارة ، حيث حطمت الادارة الاستعمارية بقصد أو بغير قصد الأعراف التقليدية ، ولم تجد لها بديلا ، وعجلت الارساليات التبشيرية بهدم الأشكال الاجتماعية العزيزة لدى الأفريقى ، كما نزع الاقتصاد الرأسمالى الفرد الافريقى من جماعته وأعطاه المال الذى ينفقه فى مطالب جديدة وجذبه الى المدن حيث تعلم كثيرا من الرذائل ، وتجرد عن فضائل الفطرة(٣) . ومن هنا كان الافريقى المتعلم وسواه فريسة لكل دعوة جديدة لها بريقها الجذاب .

يقول بعض المثقفين الأفارقة(٤) : « لقد كان رعاة الكنائس الافريقية والمبشرون بالانجيل يطلبون من الافريقيين الذين يعتنقون المسيحية أن تكون لهم أسماء مسيحية ، وكأن لب المسيحية وحقيقتها فى اسم مسيحى ، لا فى قلب الانسان . . . . واستبدل بعض الافريقيين بأسمائهم أسماء أوربية وكان التفسير النفسى لكل هذا هو أن يربطوا أنفسهم بالمستعمر ليحصلوا على عطف الآلهة ، وأصبح حمل اسم غير أوربى أمرا يدعو الى الخجل ووصمة اجتماعية ودليلا على التأخر » .

والواقع أن للأسماء دلالاتها الاجتماعية والنفسية والدينية ، وهى مؤثر للغة التى تسود فى المجتمع أو تميل نحوها الجماعة أو الفرد المسمى وهكذا كان حال الصفوة من المثقفين الأفارقة وقادة الرأى فى مجتمعاتهم فالأسماء الأول أى دون اسم الجد أو لقب العائلة مستقاة من المعين الأوربى وكذا الحال فى أسماء الأقطار الأمر الذى حدا ببعض السياسيين الى تغييرها كزائير وانجمينا .

ان الايديولوجية الافريقية تقوم على الاشتراكية ، وهذه متنوعة الاشكال . . . . وتتصف فى رأى أصحابها بصفات منها(٥) :

١ ـ أنها توحد بين ما أسهمت به الاشتراكية الأوربية ، وبين القومية الأفريقية ، والشخصية الزنجية ، أى هى القاسم المشترك بين كل الافريقيين الزنوج ، أيا كان دينهم أو عروفهم أو بلدانهم . . . . ولكن كيف يصح هذا التعميم ، وهناك فى افريقيا من يرفض الاشتراكية نفسها ، بل الزنجية الذاتية ؟ .

٢ ـ ان العقائدية الافريقية ترتكز فى تطورها على نخبة البلد ، وبخاصة الحزب السياسى الواحد . . . . . .
وهذا فى واقعه بديل استبدادى ، أو استعمارى آخر ، اذ لا مجال للرأى الآخر الذى يختلف مع الحزب ، ولذا قامت الكيانات المتسلطة فى غرب القارة ووسطها وشرقها ، تحت ما يعرف بالحزب الواحد .

٣ ـ أنها تتسم على نحو ما يفسرها أصحابها عادة ، بالفضفاضية والتوسع الفسيح ، وذات طابع برجماتى ، بحيث تتحمل أشكال التنمية الاقتصادية التى يبدو بالامكان أن تزيد ثروة الأمم الافريقية ولكن على عكس ذلك أتسعت المجاعة وازداد الانهيار الاقتصادى ، لسوء التخطيط الزراعى ، والافلاس القومى والديون المتراكمة على الدول . . .

٤ ـ لقد أكدت فلسفة الزنوجة وفلسفة الاشتراكية الافريقية على عدد من القيم الاجتماعية الافريقية التقليدية ، وهى قيم المجتمعات القبلية وان صاغتها صياغة مثالية .

ولكن الغريب فى واضعى تلك الفلسفات انهم لا يطبقونها على أنفسهم فحياتهم تتميز بالطبقية التى تعتمد على الحضارة الأوربية الرأسمالية وكل ما هنالك بالنسبة لأفراد المجتمع أنها حقول تجارب لنظرياتهم ان لهم نقل لنزواتهم .

ويرى البعض(٦) : أن السر الحقيقى فى اتجاه الزعماء الأفارقة نحو الايديولوجية الاشتراكية هو فقدانهم الثقة فى كل ما يمت الى الدول التى استعمرت بلادهم زمنا طويلا . . .

ولكن هذا التعليل لا ينطبق على الدعاة الافريقيين الذين نظروا وينظرون للهوية الافريقية ، وعلى سبيل المثال سنجور الذى يقرر ايمانه القومى بدور اللغة لا فى دعم القومية

فحسب بل أيضا فى تجميع شعوب تعيش فى مناطق متباعدة ، ولكن أية لغة تلك ؟ أهى الفرنسية التى هى أساس الفرنكوفرنية ؟ وهى حركة ترمى الى الجمع بين البلاد الناطقة بالفرنسية فى ظل رابطة ثقافية سياسية ، غايتها تدعيم الثقافة الفرنسية ونشر اشعاعها فى العالم اذن فكيف يتوافق هذا مع الافريقية ؟

○ ○ ○

الزنجية والزنوجة :

لم تكن افريقيا هى الوطن الأصلى للزنوج ، اذ أرجعتهم المصادر الأنثربولوجية الى جنوب شرقى آسيا ، ثم ساقت ظروف هجراتهم ومبرراتها الى القارة السمراء ، وقد اهتمت المؤلفات العربية القديمة فى التاريخ والرحلات والأدب بالزنج وثوراتهم ، ومنها ثورة الزنج فى الدولة العباسية . وكان يطلق على ما يعرف اليوم بالصومال وجيبوتى : بر الزنج وبلاد الزنج كما أن السيوطى ومن قبله الجاحظ وآخرون وصفوا أنماط لفظية ذات أصول زنجية بحسبانها دخيلا لغويا أو وافدا ثقافيا فى المجتمع العربى .

وقد استقر مصطلح الزنج والزنجية فى الكتابات العربية التراثية ، مع استعمال محدود لكلمة : الزنجان والزنجانية ، ولكن لم يكتف العرب المحدثون باستخدام تلك الكلمات ، بل عمدوا الى صيغة الفعولة من الكلمة كأنها أكثر انفعالا أو تفاعلا من الزنجية ، شأنها فى ذلك شأن العربية التى صارت عند القوميين « العروبة » .

لقد صاغ شاعر الغربية ايمى سيزار عام ١٩٣٩ صيغة Negritude من Negro(٢) . التى عرفت فيما بعد بالزنوجة ، وكان منطلق سيزار فى ذلك هو التلاقح الثقافى فى أمريكا اللاتينية نتيجة الهجرات الافريقية الى أوربا ثم امريكا ، واستغلال الافارقة اقتصاديا منذ القرون الثلاثة الأخيرة . . .

ولما اندلعت الحرب العالمية الثانية ، وكان من أطرافها بريطانيا وفرنسا اللتان اعتمدتا بشكل مباشر على جيوش المستعمرات فى آسيا وافريقيا بالاضافة الى الاوربيين ، كانت الفرصة للافارقة وان لم تكن طواعية ، فى التعرف على أحوال الشعوب ومدى استغلالها ، وقد وقفوا على التباين الشنيع بين واقعهم وواقع بلدانهم بالقياس الى بلدان أوربا ومافيها من تقدم مذهل . .

لقد كان سنجور ضمن جيوش فرنسا فى الحرب الثانية ، كما كان من بين ذوى الثقافة الفرنسية ، وكان ممثلا للسنغال فى الجمعية الوطنية الفرنسية ، وهنا قد تبلورت فكرة الزنوجة وتطورت الى قومية افريقية علها تستقطب الافريقيين السود ، ولذا أصبح سنجور فيلسوف الزنوجة وهو القائل : بأن الذى يوحدنا هو أبعد من التاريخ ، انه متأصل فيما قبل التاريخ وهو متعلق بالجغرافيا والسلالة واذن بالثقافة ، انه قبل المسيحية والاسلام وهو

سابق لكل احتلال ، هذه المجموعة الثقافية هى التى أسميها « الافريقية » . أحددها كمجموعة القيم الافريقية ، وسواء بدت فى مظهرها العربى البربرى ، أو مظهرها الزنجى الافريقى ، فان الافريقانية تمثل دائما نفس السمات : العاطفة فى المشاعر ، والقوة فى التعبير ، علينا أن نصهر كلنا روحا مشتركة ، وهذه الروح نملكها وبين أيدينا والتى تتمثل وتتجسد فى الافريقية ، علينا فقط أن نعترف بها ونتحملها ، وهذا ما يدعو الى أن نشرع فى رفض وابعاد كل تعصب جنسى ولغوى ودينى .(٢)

ولتأكيد فكرة الزنجية والزنوجة ، وترسيخها فى ضمير الشعوب الافريقية وأخيلتها ، وأحاسيسها ، انعقد بالسنغال أول مهرجان عالمى للفنون الزنجية فى داكار العاصمة عام ١٩٦٦ م وقد حددت العناصر التى تؤلف الثقافة فى افريقيا : باللغات والآداب الشفهية والمكتوبة ، والفكرة ، والنظرية الزنجية ، والرقص والموسيقى والفنون .(٣)

لقد شد هذا الاتجاه الزنجى السنجورى فئات كثيرة من المثقفين الأفارقة ، وتمخض عن ذلك توجهان فرعيان :

الأول : تقبل ذلك الاتجاه ، ولكنه سلك طريقا آخر ، ربما كان نتيجة للتنوع الثقافى واللغوى ، فالتوجه السنجورى يستقطب مثقفى غرب القارة الناطقين بالفرنسية .

الثانى : وهو ما عرف بمفهوم الشخصية الافريقية ، بين أبناء غرب افريقيا المتحدثين بالانجليزية ، بعد أن روج لها لأول مرة كوامى نكروما فى عام ١٩٥٨ م وهم يستخدمون الشخصية الافريقية لتبرير الغايات والوسائل التى تتعارض تماما مع غايات ووسائل الايديولوجيات الغربية .

وقد أدى هذا التيار النكرومى الى تأثير مباشر على الدارسين والطلاب الزنوج فى أوربا ، حيث حدث تعديل من فكرة الزنوجة الى مفهوم الشخصية الزنجية .(٤)

وهناك اتجاه آخر فى غرب افريقيا ، رافض لفكرة الزنوجة والزنجية لأن الزنجية لم تعد مشكلا ثقافيا هاما ، كما أنه من ناحية أخرى يجب التفريق بين الزنجية والعالم الاسود ، اما هذا الأخير فهو واقع موضوعى يتحتم علينا ، قد سبق الزنجية وسيبقى بعدها ، أما الزنجية فأصبحت اليوم لا أساس لها ولم تعد صالحة للنهضة الافريقية كنظرية عامة شاملة لافريقيا ما دمنا لسنا جميعا سودا .(٥)

بل أن سيكتورى الذى كان شديد الغيرة على افريقيا وحريتها يعد من القادة السياسيين الرافضين للتيار الزنجى ، فهو يقول فى رسالته الى المهرجان الثقافى الافريقى الثانى الذى عقد بالجزائر ١٩٧٠ م ، أنه : ليس هناك ثقافة سوداء ، ولا ثقافة بيضاء ، ولا ثقافة صفراء ، كما أنه ليست هناك حضارة سوداء ولا حضارة بيضاء ولا حضارة صفراء . . . هناك شعوب مختلفة ألوانها وأديانها وقومياتها ، تعبر عن أفكارها وارادتها بصفة مختلفة ، وتستعمل لذلك وسائل متنوعة ومختلفة ، حسب مستوى نموها الفكرى والتقنى والاجتماعى . . . ان الزنجية ـ اذن مفهوم غير صحيح ، ولا سلاح عقلانى ، يساعد اللاعقلانية ، انها مفهوم يعتمد على التمييز العنصرى الذى يتحكم فى شعوب افريقيا وآسيا ، والرجال الملونين بأمريكا وأوربا .(٦)

هذه واحدة من الرؤى الافريقية التى لا يتهمها أحد فى اخلاصها للقارة وأبنائها .

لقد شهد آخر الستينيات وبداية السبيعينات من هذا القرن صراعات حادة فى الأفكار والعقائد والقوميات ، وكان ملتقى الجزائر مجالا لاستعراض الآراء من غرب القارة ووسطها وجنوبها وشمالها وشرقها ، كما كان بوتقة لصهر كثير من الآراء الخاطئة من عربية وبربرية وافريقية وزنجية . . الخ .

○ ○ ○

القومية :

ان الزنوجة والقومية من المفاهيم التى صاحبت الافرازات التى قذفت بها حمم الحرب العالمية الثانية ، وقد رمى بهما بعد نهاية الحرب فى وجه شعوب افريقيا والعالم العربى ، لتساعد على اغراقها فى دوامة الاختلافات التى تنشأ من تنظير منظريها والداعين اليها .

والقومية هى المصدر الصناعى من كلمة القوم ، ومهما يكن من أمر فهى لا تعطى الايقاع ذا الزخم الدلالى والنفسى والموسيقى لكلمة « أمة » .

ولما كانت الامة الواحدة قد تجمعها العقيدة بحسبانها عنصرا أساسيا فى الاحتواء ، وان كان فى مجتمعاتها أكثر من لغة ، فان القومية قد تعاورتها تعريفات متعددة ، فتعددت عناصرها ، ولكنها لا تخرج عن التاريخ واللغة والجنس .

وفى ضوء ما عاصر الانسان من قوميات خلال ثلاثة عقود مضت ، لم تكن هناك قومية واحدة قد حافظت على بنائها وتلاحمها ، أو تلافت التناقض والتمزق ، وعدم الارتماء فى أحضان العقائدية الاشتراكية الشيوعية . يستوى فى ذلك العالمان العربى والافريقى فهناك : العروبة ، والفينيقية والسوراقية ، والمغربية ، والبربرية والافريقية والزنجية ، وشمال افريقيا ، وجنوب الصحراء ، وغرب القارة ، ووسطها ، وشرقها ، وجنوب شرقها ، الى آخر ذلك من مسميات ونزوات .

ان شعوب القارة السمراء بحكم تكوينها ليست أممية الاتجاه ، أو ضد الحكم الأجنبى الذى يأتيها من الخارج فحسب ، بل ومن الداخل كذلك ، اذ كل جماعة أو دولة تحب أن تكون مستقلة عن الأخرى ، ولكن قادة افريقيا يقسرون شعوبهم على ما لم تألفها .

وحينما استعرت المعارك القومية بين المثقفين الآفارقة ذوى التوجه الاشتراكى الشيوعى ، وأولئك الحريصيين على أفريقيا الافريقية ، كان الخلاف حول علاقة القومية والشيوعية ، يقول بعضهم[1] : « وفى بحثنا . . لم نجد أية علاقة بين القومية الافريقية والشيوعية الروسية ، فالقومية الافريقية تنبثق من داخل افريقيا ، وليس من موسكو ، واذا استطاع الافريقى أن يستمر فى كراهيته للشيوعية من كل قلبه كما يكره الاستعمار الأوربى ، فذلك خير له ، لأن تفضيل نوع من الاستعمار على نوع آخر هو منتهى الحماقة وسوء التقدير القاتل . . . » .

وصاحب هذا الرأى ذو تربية مسيحية كنسية ، رغم محاولته أحيانا الفكاك عن اسار الثقافة المسيحية الاستعمارية ، وكذا الهيمنة الحضارية الأوربية . . ولكنه مع ذلك لا يرتضى الشيوعية عقيدة للقومية الافريقية .

ان الجماعة الافريقية ترتبط فيما بينها بالرباط اللغوى أكثر من أى رابط اجتماعى آخر ، وكان لتعدد اللغات أثره الواضح فى سيطرة الاستعمار على القارة ، اذ تبلغ اللغات واللهجات التى يتكلمها الافارقة ما يزيد على ٧٠٠ لغة ولهجة ، وقد انتشرت السواحلية فى الشرق وأصبحت المناطق الواقعة بين الصومال فى الشمال وروديسيا فى الجنوب ، وزنجبار فى الشرق ، ورواندا أروندى فى الغرب ، ممثلة لتلك اللغة ، بالاضافة الى نحو مائتى لهجة ولغة . . . وأثرت العربية تأثيرا فاعلا فى الشعوب المجاورة لها فى الغرب والشرق ، حتى بلغت الكلمات المشتقة من أصل عربى فى السواحلية أكثر من ٧٠ ٪ قبل مذبحة زنجبار ، كما أن لغة الهوسا تضم أكثر من ٦٠ ٪ من الألفاظ العربية والاسلامية ، ويرجع ذلك الى تقارب القبائل التى تتكلم هاتين اللغتين ومجاورتها للجماعات التى تتكلم العربية ، والى انتشار الاسلام بين تلك القبائل . .

وليس معنى هذا أن تعلم العربية تنازل من الافريقى عن لغته القومية أو لهجته القبلية ، وكذا العكس بالنسبة للعربى حينما يتعلم السواحلية أو الهوسا ، أو أية لغة افريقية أخرى . . ومن هنا كانت الضرورة السياسية فى اعتبار تلك اللغات الثلاث ، لغات رسمية فى المنظمة الافريقية وتهتم بها جامعاتها . وان كان فى الواقع أن اللغات التى يستخدمها المتحدثون فى المنظمة هى الانجليزية والفرنسية فقط ؟

ورغم عشرات المؤتمرات واللقاءات فى اديس أبابا ، حيث مقر المنظمة أو فى أى قطر افريقى آخر ، لم يتخل سنجور عن فرنسيته ، أو نايريرى عن انجليزيته ، وكان العرب بين هذا وذاك ، اذا استثنيا بعض الكلمات الرئيسية . . .

ان اللغة العربية لم تجد فى افريقيا ، قومية تعتمد عليها فى دفعها بل كان ومايزال اندفاعها ذاتيا ، دون الحكام والحكومات ، رغم جهود المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، اذ لم تستطع هذه أن تحل مشكلة اللغة العربية فى دولتين منضويتين رسميا اليها والى الجامعة العربية وهما الصومال وجيبوتى ، اذ أن الأولى ماتزال فى تأرجحها بين الماركسية واللادينية ، وما تنفك فى اصرارها أن تكون بعيدة عن الثقافة العربية الاسلامية ، فهى التى فرضت الصومالية لغة رسمية ، وأزاحت الحرف العربى عن حياتها ، واستبدلت به حرفا لاتينيا ، حتى تكون الصومالية بمنأى عن العربية فى عاداتها ومشاعر أبنائها . . وقديما قيل أن فاقد الشىء لا يعطيه .

لقد قلنا من قبل أن الطابع القبلى أو التجزئيى تغلب على افريقيا منذ فجر تاريخها ، ولم تظهر ملامح الدولة والحياة الجمعية المنظمة الا بعد دخول الاسلام اليها ، ثم النشاطات الاستعمارية الاوربية فى القرنين ١٩ ـ ٢٠ وكما هو معلوم أن نهاية نظام القبلية واحلال نظام الدولة محله فى المجتمعات المختلفة ترجع الى عوامل ثلاثة :ـ

١ ـ الحاجة الملحة الى التعاون بين القبائل لخلق حالة من الاستقرار دعا اليها التقدم الزراعى .

٢ ـ هجرة جماعات كبيرة من الناس واستقرارها فى سلام بمنطقة معينة .

٣ ـ الغزو بين الجماعات المختلفة وتغلب بعضها على بعض ، وتوحيدها فى نظام واحد .

وأى قومية من القوميات فى حاجة الى نظام لغوى سياسى مقتدر لتدعيم أهدافها . . . وقد بدأت ملامح ذلك فى أوربا الغربية حيث القومية الفرنسية التى تطورت فى إطار لغوى من قبائل الفال التى تتكلم لغة منحدرة من اللاتينية ، وهى الكلتيه ، والقومية الانجليزية التى تطورت من صراع لغوى بين اللغة الفرنسية النورماندية ، واللغة السكوسونية ، وهناك القومية الاسبانية التى كانت نتيجة للصراع التاريخى اللغوى بين العرب والاسبان .

ويرى توينبى أن الدول قبل القرن ١٩ كانت تحكمها فى أوربا عائلات ملكية ، فلما جاء القرن ١٩ اقتحم هذه الدول قوتان : احداهما الديمقراطية ، والاخرى الاقتصاد القومى ، وظلت خريطة أوربا بعد مؤتمر فيينا سنة ١٨١٥ بعيدة كل البعد عن الاعتبارات القومية . . ومن جراء ذلك أصبحت القومية الايطالية موزعة بين ولايات تزعم لنفسها الاستقلال وأخرى ترزخ تحت حكم الدول الكبرى ، ثم بزغ فجر القومية الايطالية مرة أخرى ، وبدأ الايطاليون يحسون بكيانهم المتميز ممثلا فى اللغة التى تنحدر انحدارا مباشرا من اللاتينية .(٢)

وأوضح مثال على التمزق القومى اللغوى فى دولة من الدول الاوربية ذلك الواقع الماثل فى النمسا وسويسرا حيث القوميات السلافية والمغولية والألمانية واللاتينية ، وهى عبارة عن لغات مختلفة . وبقدر ما أدى التسلط الخارجى على تفتيت كيانات تلك الأقطار ، حمل الاستعمار ميراثه التليد ، وطبقه فى افريقيا ، وذلك انطلاقا من مقررات وتوصيات مؤتمر مانشستر ١٩٤٥ م .

ان اللغة هى الاساس فى شعور الجماعة بانتماء بعضهم الى بعض ، واشتراكهم فى نفس الذكريات ، سواء كانت تاريخية أو ثقافية أو اقتصادية ، ولذا فان اللغة المشتركة هى فى حقيقة الأمر تعبير عن القومية . . ولم يكن من المصادف أن فكرة القومية حينما بدأت تتخذ شكلها المتميز فى القرن ١٨ لم يكن من روادها عسكريون أو سياسيون ، وانما كانوا من العلماء والشعراء والكتاب الذين حاولوا جهدهم أن يلتمسوا روح الشعب فى الأساطير القديمة والأغانى المجهولة الأصل ، وهى ما تعرف الآن بالتراث الشعبى أو الفولكلور ومن هنا كان مفكرو الألمان يؤمنون ايمانا قويا بأثر اللغة فى تكوين القومية ، لأن اللغة وحدها هى أساس القومية .(٣)

ان اللغات القومية فى افريقيا هى : العربية والأمهرية والصومالية والمجموعة السودانية التى تمتد فى شكل حزام عبر السودان الجنوبى من جامبيا الى كينيا ، وأهم لغات هذه المجموعة : الهوسا ، ومجموعة البانتو وأهمها السواحلية . . .

ويتضح من هذا كثرة اللغات فى الاقطار الافريقية الشىء الذى يستحيل معها أن تفترض لغة افريقية معينة بأنها هى التى تعبر عن القومية الافريقية ومن هنا ، فربما تكون هناك قوميات ، ولكل منها لغاتها . . .

ان ما عرف قديما بالشعوبية أو بحركات تنقية اللغات بين الشعوب أو ما عرف حديثا بالصراع اللغوى ، هو والقومية فى الواقع ، موقفان اعتباريان بين الشعوب المتناقضة ، فهناك صراع لغوى بين العربية والفارسية وبين العربية والتركية .(٤) وحديثا هناك حركة التعريب فى الجزائر وما أحدثها من صراع بين العربية والفرنسية ، وبين العربية والبربرية ولكل منها انصارها والمنافحون عنها ، وكذا الحال فى السودان بين شماله وجنوبه ، حيث الثقافة العربية الاسلامية فى الشمال ، وفقدان الهوية فى جماعات الجنوب .

ان مشكلة اللغة لاتنفك عن مشاكل السياسة ، وبقدر القوة والادراك ، فى هذى ، تجد اللغة متسعا لتجميع الجماعات وتبدو قوة العلاقة بكل وضوح فى نهضة التصحيح التى بدأتها الدول بعد استقلالها ، وخلال ثلاثين عاما فى البلدان ذات الثقافة الانجليزية أو الثقافة الفرنسية . . . وان أنسى فلا أنسى تلك اللحظة التى كان أحد الوزراء الجزائريين يؤبن فيها الرئيس الجزائرى الراحل هوارى بومدين . حيث أختير لذلك الموقف لكونه يستطيع أن يبين بالعربية ، فى حين أنه كان ينبغى أن يتحدث كبير القوم يومذاك . . . وقد كانت الكلمة رهيبة وجميلة ومعبرة ، ولكنها لم تكن للشعب الجزائرى ، وانما هى للأمة العربية الناطقة باللغة العربية . .

لقد حدد بومدين عامين فقط ١٩٦٨ ـ ١٩٧٠ م لكى يتمكن فيهما الموظفون ورجال الادارة فى الجزائر من تعلم اللغة العربية . . . ولكن مضى العامان ، ومضى بومـدين لسبيله ، وما يزال الصراع اللغوى على أشده ، بل هناك كأحمد بن بيلا ـ من يدعو الى الاعتراف باللغة البربرية وقوميتها . . من أجل كسب سياسى ، لا أدرى أيتحقق أم لا ؟

ومن هنا تتضح فداحة الموقف بالنسبة الى العربية اذ أن مشاكلها والصعوبات التى تجابهها ليست فى المجتمعات الافريقية الزنجية فحسب بل فى الأقطار العربية نفسها ، وكان من المفترض أن تكون اللغة العربية مسألة لا تقبل الخلاف اذ أنها خزانة المعرفة ، ومظهر الوطنية ، وعنوان القومية ، وعلامة للثراء الفكرى ، والوجدانى ، وآية للترقى .[٥]

○ ○ ○

القوميات والصراع اللغوى فى افريقيا :

لم تعرف القارة السمراء باسم افريقيا الا فى فترة تاريخية متأخرة أى بعد عصر الاستكشاف والتقدم العلمى فى مجال الجغرافية الحديثة ، اذ كانت تعرف بأسماء من أجزائها كأثيوبيا وليبيا والسودان ، وفى بعض البحوث خلال القرنين ١٧ ـ ١٨ أطلقت على جزئها الغربى : النيجر ، أما هذا الاسم الذى ارتضته لغات الحضارة الحديثة ، ومنها العربية ، فقد كان علما لجزء بشمال افريقيا ، وبالتحديد ليبيا وتونس ، واذا كان تخوف الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه منها ووصفه اياها بالمفرقة ، حينما عرض عليه عمرو بن العاص والى مصر ، فتح ذلك الجزء الواقع غرب مصر لأن تلك المنطقة لم تكن آنذاك واضحة المعالم لابن الخطاب ، وغير مطروقة من قبل العرب ، وان كانت متصلة بمصر منذ قديم الزمان .

وحينما بدأ عصر التنوير الافريقى ، ظهرت تيارات متعددة واتجاهات مختلفة فى التلقى الثقافى ، تخللتها نوازع ناضجة حينا ، وأحيانا أخرى دوافع ضاغطة بالشعارات والأحلام ، للرجوع الى الجذور الأولى ، وقد غذتها مناهج غربية لا صلة بها باللغة العربية أو الحضارة الاسلامية ، وفى ضوئها برقت القوميات بكل ألوانها التى أشرنا اليها من قبل ، وهى نتيجة طبيعية للتمزق فى الهوية والتوجه والاعتقاد .

وقد حمل لواء ذلك الزخم الهائل المتناحر أبناء القارة أنفسهم وسلط على بعضهم الاعلام الغربى أضواءا وغمرهم بوابل من النعوت مثل : الفيلسوف والشاعر والمعلم والمفكر وجماعة الحكماء . . . ورغم هذه الصفات انحدرت بعض البلدان الافريقية الى أسواء مما كانت عليه فى عهد الاستعمار . . .

شرق افريقيا :

فى الجزء الشمالى من شرقى افريقيا ، نشطت العلاقات الاثيوبية العربية خلال القرنين ٦ ـ ٧ الميلاديين ، وقد واكبها دخول اللغة العربية الى ذلك الجزء ، وكانت هناك الهجرتان الاسلاميتان الى الحبشة بتوجيه من الرسول ﷺ ، وتورد كتب التاريخ الاسلامى وجود علاقات قديمة بين بعض القرشيين كعمرو بن العاص وبين النجاشى ملك الحبشة ، وهذا هو سر ارسال المشركين لعمرو سفيرا لهم كى يفاوض النجاشى حول ارجاع جعفر بن ابى طالب وأصحابه الى مكة مرة أخرى .

ثم تتالت الرحلات والهجرات ، ومنها التى قام بها سليمان وسعيد ابناء عباد بن عبد الجلندى من عمان الى سواحل شرق افريقيا فى القرن السابع الميلادى ، وفى هذه الهجرة قدمت أعداد كبيرة من العمانيين الذين اشتهروا بمغامرات البحار . وقد حفظت لنا الروايات الشفهية وبعض المخطوطات وكتب البلدانيين والمؤرخين الشىء الكثير .[1]

وقد نشأ من جراء تلك الهجرات وسواها ، دويلات اسلامية فى مقديشيو وباتى ، وكلوة ، وزنجبار ، وصارت العربية لغة الادارة والقضاء والمعاملات التجارية وكذا فى مجالات الأدب والفنون . . .

وبعد فترة الدويلات الاسلامية ، أعقبتها مرحلة الاستكشاف والاستعمار البرتغالى ، وتشير المعلومات المتوفرة من خلال رحلة فاسكو دى جاما فى أواخر القرن (١٥) الميلادى على انتشار العرب واللغة العربية ، حتى فى الاماكن النائية من شرقى افريقيا كموزمبيق ، وفى مطلع القرن ١٦ وحينما عزل البرتغاليون ملك كلوة ، وعينوا بديلا له فى عام ١٥٠٥ م تم اعلان ذلك باللغتين العربية والبرتغالية ، وحررت المعاهدة بهما .

وقد وصل انتشار الثقافة العربية الاسلامية ذروته فى عهد الشيخ سعيد بن سلطان ، الذى امتدت حدود دولته من مقديشيو فى الشمال الى رأس دلقادو فى الجنوب ، ومن مملكة يوغندا فى الشمال الغربى الى الكونغو زائير فى الغرب ، واكتسبت العربية وضعا متميزا فى تلك البقعة الجغرافية الشاسعة خلال القرون ١٧ ـ ١٩ .[2]

مناهضة اللغة العربية فى شرق افريقيا :

اتخذ سياسة مناهضة اللغة العربية فى هذه المنطقة أشكالا مختلفة من بينها :

١ ـ اضعاف موقف العربية فى الحياة اليومية ، وفى مجالات العمل الرسمى .
٢ ـ محاولة عزل المواطن الافريقى عن التراث المكتوب بالعربية حيث جرى تغيير الحرف العربى بالحرف اللاتينى .
٣ ـ عزل الساحل الافريقى المسلم المتأثر باللغة العربية والثقافة الاسلامية عن داخل القارة ، ومثال ذلك : مواطنو زنجبار وممبسا .
٤ ـ محاربة تدريس اللغة العربية فى المدارس ، والاهمال التام للعرب والمستعربين فى مجال التعليم .[3]

واتخذت سياسة المناهضة شكلا دقيقا ومنظما ومنتظما منذ القرن التاسع عشر عندما أنشأ الاستعمار الأوربى حزاما واقيا ، فصل بموجبه داخل القارة عن الساحل الشرقى الذى

يمثل منطقة نفوذ الثقافة العربية والاسلامية وفى بداية القرن العشرين ذوب الساحل الافريقى داخل القارة بصورة كاملة . . . وفى عام ١٩٠٥ خاطب المبشر الكنسى يوليوس ريشتز مؤتمر المستعمرات الاوربية مذكرا المجتمعين بأن الاسلام ينتشر أينما أنتشرت اللغات المرتبطة به ، ودعا الى تحريم ذلك فى الدواوين الحكومية ، وهو يعنى باللغات المرتبطة بالاسلام : العربية والسواحلية والهوسا .

وفى عام ١٩٠٧ أصدرت الادارة الالمانية فى شرقى افريقيا قرارا حرمت بموجبه استعمال الكتابة العربية فى الوثائق الرسمية لدواوين الدولة وكذلك الحرف العربى الذى كانت السواحلية تكتب به ، وبدأ نظام الكتابة بالحروف اللاتينية ، ولقد خطط لذلك وجلب له الخبراء فى علم اللسانيات أضف الى ذلك خضوع زنجبار للوصاية البريطانية ، واهمال تعليم العرب والمسلمين بالجزيرة ، ولم تفتح أية مدرسة لهم الا فى ١٩٠٧ بينما فتحت أول مدرسة للجالية الهندية عام ١٨٩١ رغم قلة عدد أفرادها بالنسبة للسواحليين المسلمين ، والأعجب فى ذلك أن التدريس كانت بالسواحلية فى مدارس المسلمين . . . وكان ذلك من الاسباب التى دفعت بالجماعات العربية والمسلمة الى مقاطعة تلك المدارس ، مما أرغم الادارة البريطانية عام ١٩٣٩ الى استقدام خبير لدراسة ظاهرة عزوف الوطنيين عن التعليم .(٤)

أما فى كينيا فقد فتحت الادارة البريطانية أول مدرسة للمسلمين والعرب بممبسا عام ١٩١٢ ـ بينما فتح الألمان أول مدرسة فى تنجانيقا عام ١٨٩٤ ـ وقد رفضت ادارة التعليم فى ممبسا تدريس القرآن واللغة العربية ، ولكنها تراجعت عن قرارها وسمحت بتدريس اللغة العربية فى المدارس العربية عام ١٩٣٨ م . هذا ما كان من الحال والمال فى عهد الاستعمار الأوربى وجمعياته التبشيرية .

أما فى عهد الاستقلال أو الإستغلال الوطنى ، أو الحكم الافريقى لا أدرى ؟ فقد تمت مذبحة زنجبار لتستأصل شأفة العرب ، وتمحو الثقافة الاسلامية ، وكان أن أدمجت زنجبار فى تنجانيقا ، وأصبحت تنزانيا ثم قوضت المجتمعات الاسلامية وملامح الثقافة العربية فى يوغندا ، بعد نهاية الكباكا وعمه وزعماء المسلمين ، وأصبحت الجماعات الاسلامية فى كينيا بين أمرين أما التحديث الكنسى ، أو التمسك بالاسلام واللغة العربية مع البقاء على التأخر والرضى بالظلم . . .

وقد اختلفت الأحوال قليلا بعدما شعرت دول القرن الافريقى بحاجتها الاقتصادية الى دعم دول النفط وعلى رأسها الدول العربية ، فبدأت بالسماح لبعض الدول

والمؤسسات بانشاء المدارس العربية ، واقامة المراكز الاسلامية والثقافية ، وهكذا وجه المركز الاسلامى الافريقى بالخرطوم ومعهد الخرطوم الدولى لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها ، ومنظمة الدعوة الاسلامية ، ورابطة العالم الاسلامى وغيرها من هيئات ، وجهت نشاطها الى تلك الدول الافريقية التى قد سار قادتها فى عدائهم للاسلام واللغة العربية على خطى السابقين من مستعمريهم ، وكان يجمعهم فى ذلك منطلق واحد هو الفكر المسيحى . .

غـــرب افريقيـــا :

ان العداء السافر للغة العربية أقل حدة فى غرب القارة من شرقيها ومرجع ذلك أصالة الاسلام فى ممالك القارة الغربية منذ القرن الثانى الهجرى ثم توالى الزحف الاسلامى حتى بعد دخول الاستعمار الأوروبى الذى هَجَّر ملايين البشر الى أوربا وأمريكا ضمن قوافل تجارة العبيد ، وقد وضحت الآثار التى خلفتها الجماعات الافريقية الامريكية على درجات الألوان والموسيقى والغناء ، وغيرها من الموروثات الثقافية والاجتماعية ، وهذا ما عناه بعض المشاركين فى ملتقى الجزائر ١٩٧٠ م من أن مقدم الأفارقة قد غير تماما سمات الشعب البرازيلى التى كانت برتغالية الى حد بعيد ، وأعطاه السمات الحالية المخالفة تماما لسمات شعوب أمريكا اللاتينية .

ان الصراع اللغوى غير المسلح بالعنصرية والعقدية أكبر عامل فعال فى خصوصية اللغات وتنميتها ، اذ تستطيع اللغات أن تتجاوز وتقترض وتقرض ويتمكن أهلها والباحثون فى شئونها من حل مشاكلها وتذليل صعابها . . . وقد التقى لأول مرة مؤرخون ولغويون وباحثون ، عربا وأفارقة لتشخيص وتوضيح دور العلماء الأفارقة فى نشر الاسلام وذلك فى ندوة الخرطوم ١٩٨٣ تحت رعاية معهد الدراسات العربية التابع للمنظمة العربية ، كما أنعقدت ندوة أخرى بداكار ١٩٨٤ لدراسة العلاقات بين اللغة العربية وست لغات افريقية وهى السواحلية والهوسا والفولانية والولوفية والماندكية واليوروبا . وهى عدا السواحلية من لغات غرب القارة ووسطها .

ويهدف ملتقى داكار الى احياء العلاقات التاريخية القديمة بين اللغة العربية وتلك اللغات المحلية وتدعيمها ، وهى علاقات عمل المبشرون والاستعماريون على طمسها وحاربتها بجميع الوسائل ، وتعتبر هذه الندوة أول رد فعل عملى منظم على الحملات التشويهية المغرضة التى تعرضت لها العربية والحرف العربى والقاموس العربى فى غرب القارة طوال العهود الماضية .

وقد أكد أحد المشاركين فى الندوة وهو سنغالى(٥) : أن اللغة العربية تمثل عـامل وحدة ومحبة بين العرب والافارقة ، وتتجلى هذه الحقيقة ليس فى كون اللغة العربية لغة القرآن الكريم أو لغة ضمن اللغات العالمية الحية أو لكونها لغة الأدب والشعر .

ولكن ايضا لغة افريقية لعبت دورا كبيرا فى تاريخ الانسانية ، وتستطيع أن تلعب دورا أكبر فى المستقبل ، وأن اللغة العربية ستسترجع مكانتها القديمة فى افريقيا ، لأنها ليست لغة مستوردة ولكنها لغة افريقية صميمة .(٦)

وبقدر ما كان هذا الصوت ايجابيا ومدافعا عن اللغة العربية ومكانتها وأصالتها فى القارة كان هناك بعض أصوات داخل الندوة يناهض انتشار العربية ولا يقبل أن تتقوى اللغـة العربيـة فى افريقيـا على حسـاب اللغات المحليـة التى تمثل خصـوصية الانسـان الافريقى . . . وأن انتشار اللغة العربية فى افريقيا كان من نتائجه عـرقلة تطور الفكـر الافريقى . . . .(٧)

وهذا الرأى ليس بغريب فى خضم المناهضة العقائدية القومية ، فهو تعبير صريح عن توجهات أنصار الزنوجة والافريقية من الاشتراكيين فى غرب القارة وشرقها .

تاريخ الصراع اللغوى فى السودان :

لم يكن هناك علاقات أو صلات متينة بين شمال السودان وجنوبه قبل الحكم التركى ، وكان يطلق اسم السودان فى القديم على الشريط الممتد من اثيوبيا الى السنغال ، ومن هنا عرفت الممالك السودانية سنار وكردفان ودارفور وبرنو ومالى الخ . . .

كما لم يكن المؤرخون يعلمون حقيقة الأوضاع فى الجنوب الحالى الا أبان ذلك الحكم الذى بسط نفوذه حتى الاستوائية ، وفى خلال العهد التركى هذا بدأت اللغة العربية تجد طريقها نحو الانتشار فى الجنوب عن طريق الجيش والتجارة والادارة . . . وحدثت تغييرات هامة فى اقليم الاستوائية أيام حكم أمين باشا ١٨٧٨ ـ ١٨٨٨ م ساعدت على دعم موقف اللغة العربية فى الاقليم وخارجه ، اذ أدخلت الادارة التركية أعدادا كبيرة من أبناء الجنوب فى الجيش ، وكانت العربية المتداولة فى الجنوب تطلق عليها (عربية البمباشى) أى اللغة التى يتحدثها الضابط مع جنوده ، وهى اللغة التى تؤرخ للهجة العربية هناك ، وبالتحديد عربية جوبا ، Juba Arabic وقد اكتسبت هذه العربية بحلول العقدين السابع والثامن من القرن التاسع عشر ملامحها الخاصة عن طريق تهجينها باللغات المحلية ، وبنهاية حكم أمين باشا فى جنوب السودان ، دخلت العربية مرحلة جديدة ، حيث عبرت جيوشه حدود السودان الجغرافية الى الأقطار المجاورة مثل كينيا ويوغندا وتنزانيا وذلك بعد نجاح الثورة المهدية فى شمال السودان ، وانسحاب أمين باشا بجنوده إلى شرق افريقيا ، فاختلطوا بسكان المناطق الجديدة ، وأثروا فيهم وتأثروا بهم ، ويقال أن الجماعات الشمالية فى يوغندا ومنها قبيلة الرئيس السابق عيدى أمين هى فى أساسها جماعات سودانية هاجرت من شمال السودان وغربه واستقرت على ذلك الحزام المتأخم للحدود السودانية ونشأ من جراء ذلك تلاقح بشرى ، وتمازج لغوى ، وتداخل ثقافى تمثله لغة اللكنوبى ، وهى لغة خاصة جديدة مهجنة من عربية الجنوب واللغة السواحلية فى شرق القارة .(٨) وقد أصبحت هذه اللهجة العربية المهجنة لغة تخاطب بين الجماعات المختلفة فى جنوب السودان وجماعات الدول المجاورة دون قهر عسكرى ، أو تسلط سياسى ، حتى جاء الاستعمار بسياسة مناهضة اللغة العربية فى شرق افريقيا فوضعت العوائق أمامها ، وقد كانت تنداح بتلقائيتها الفاعلة . . . ثم طوى الاستعمار السودان وبدأ الانجليز مناهضة الثقافة الاسلامية واللغة العربية فى جنوب السودان فوضع اللورد

كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر والسير ونجت حاكم السودان العام ، والمستر جيمس كرى مدير المعارف سياسة المناهضة وأسسها وشاركهم فى تنفيذها مديرو المديريات الجنوبية ورؤساء البعثات التبشيرية فى الجنوب .

وفى عام ١٩٠٤ م كتب مدير بحر الغزال الى مدير المعارف المستر جيمس كرى ، يخبره بأنه أفتتح أول مدرسة فى مديريته ، لأبناء الجنود والمدينيين ، وكان ناظر المدرسة اسمه : أحمد ثروت ، وجميع التلاميذ من المسلمين ، فووجه بقدر غير يسير من عوائق المبشرين . لقد بادر المبشرون فى جنوب السودان بادىء الأمر بمحاربة العربية واضعاف موقفها فى دوائر الادارة والتعليم ، اذ كانت لهم اليد الطولى فى تخطيط التعليم وادارته ، وساروا على نهج الخطة التى وضعت فى تنزانيا وكينيا ويوغندا فأهملوا تعليم المواطنين لانزعاجهم من غلبة استعمال اللغة العربية ، وفى ذلك كتب القس قوين الى السردار بتاريخ ١٩١٠/١٢/٢٦ م ينبهه الى أنه ـ اذا استمر الحال على ما هى عليه ، فليس هناك داع لأن يكلف مساعدوه أنفسهم مشقة تدريس اللغة الأنجليزية ، لأنه بعد زمن وجيز لن يجد المواطنون الجنوبيون حاجة لتعليم تلك اللغة ، ما دامت اللغة العربية تنتشر والنفوذ الاسلامى يتسع .(٩)

لقد عملت الادارة البريطانية فى جنوب السودان على عزل الجنوب اجتماعيا وثقافيا عن شمال السودان ، على أمل أن يقود ذلك الى عزله لغويا ، كان هناك مؤتمر الرجاف اللغوى العالمى ١٩٢٨ م وهو المؤتمر الذى سبق بمؤتمرين محليين : الأول ١٩١٨ م والثانى ١٩٢٤ م وقد شارك فى مؤتمر الرجاف اكثر من ٤٠ شخصية من العالمين فى مجال الدراسات اللغوية فى افريقيا وانجلترا ، وعقد تحت اشراف المعهد العالمى للغات والثقافات الافريقية فى لندن . International Institute of African Languages and Cultures ومن بين المسائل التى ناقسها المؤتمرون : مشكلة توحيد الحروف التى تكتب بها لغات الجنوب ، وتم الاتفاق على مجموعة معينة من اللغات الجنوبية لتصبح وسيلة للتعليم ، كما ناقش موضوع تدريس اللغة العربية الذى أثاره بعض الاداريين البريطانيين على أن تدرس مكتوبة بالحروف اللاتينية .(١٠)

واستمر تنفيذ سياسة عزلة الجنوب ، وبدأت حركة ترجمة الأناجيل وتأليف كتب التربية المسيحية باللغات المحلية التى تكتب بالحروف اللاتينية ثم وضعت الادارة الاستعمارية سياسة أخرى معدلة ، حيث جاء فى مذكرة عام ١٩٣٠ م القوانين التى تنص على منع تحرك الشماليين الى الجنوب ، والاهتمام بتصفية الأثر الاسلامى والعربى من الجنوب بشتى الوسائل ، كما حرمت على مواطنى كردفان ودارفور دخول مديرية بحر

الغزال ، والعكس كذلك لمواطنى بحر الغزال ، وحدث من الهجرات الموسمية التى يقوم بها الرعاة ، وعمل على تهجير بعض قبائل جنوب السودان من مواطنهم التقليدية المتاخمة لتأثيرات الثقافة الاسلامية والعربية فى الشمال ، وتم اسكانهم فى مناطق جديدة تبعد عن نفوذ الجماعات الشمالية ومن تلك القبائل : البندا والكريج والبنقا .

وبحلول الأربعينات من هذا القرن ، تنبهت بريطانيا الى فشل سياستها الرامية الى عزل الشمال من الجنوب فشرعت بفك الحصار الذى فرضته على الجنوب تدريجيا ، وكان ذلك افرازا طبيعيا لمتغيرات ما بعد الحرب العالمية الثانية .

ويعتبر عام ١٩٤٦ م نقطة تحول للسياسة الاستعمارية فى مجال التعليم والسودنة وفى عام ١٩٤٧ م انعقد مؤتمر جوبا الذى تقرر فيه ارتباط الجنوب بالشمال اقتصاديا وسياسيا ، وتقرر أيضا نتيجة لذلك تدريس اللغة العربية فى جميع مدارس الجنوب بصفة رسمية لأول مرة ، ولتنفيذ ذلك تم نقل الأستاذ سرالختم الخليفة من بخت الرضا الى جوبا ، ووضعت خطة شاملة للتعليم بالجنوب لأعوام ١٩٥١ ـ ١٩٥٦ م ومن أجل تحقيق ذلك استقدمت وزارة المعارف السودانية الخبير اللغوى الدكتور خليل محمود عساكر عام ١٩٥٥ م للمساعدة فى تعريب التعليم بمدارس الجنوب ، ولكتابة لغات الجنوب بالحرف العربى ، بدلا من الحرف اللاتينى .(١١)

الصراع اللغوى بين العقائدية والقومية فى السودان :

لم تكن مجتمعات السودان قبل الاستعمار البريطانى ، تتعامل فيما بينها ، بغير اللغة العربية ، لا سيما فى اداراتها وسياستها ، وطرق تعليمها ، واقتصادها ، وعندما بسطت بريطانيا هيمنتها على البلاد بحدودها الحالية ، تركت العربية متداولة فى الادارات الدنيا ، ولم تستطع أن تحول دون استخدامها فى المجتمعات الشمالية ، وان كانت الانجليزية دون غيرها هى اللغة الرسمية فى دوائر الحكومة العليا . . .

وبعد أن استقل السودان ١٩٥٦ م نص دستوره المؤقت على أن اللغة العربية هى اللغة الرسمية ، ولم يكن اذ ذاك أى اعتراض من أحد رغم حوادث الجنوب الدامية التى بدأت ١٩٥٥ م ، وما تزال ، حيث يتجرع السودان بأسره مرارة آثارها الماثلة فى الجنوب من تمرد وحروب متلاحقة ، وكلها من منطلقات تصب فى نهاية الأمر داخل دائرة الرفض العقائدى مسيحيا كان أم اشتراكيا ، من خلال الدعوة الى القومية الزنجية ، أو الارتداد الى الوثنية الافريقية .

وجاء دستور ١٩٧٣ م بتلفيقات الجعافرة ، حيث أدخل ما عرف بكريم المعتقدات ، ويعنى بها فلاسفة التنظير يومذاك ، غير الاسلام والمسيحية من الوثنيات المتبقية فى جبال النوبا وجنوب السودان . . . وقد نص فى هذا الدستور على أن اللغة القومية للسودان هى العربية ، فى حين تنص اتفاقية أديس أبابا أن اللغة الرسمية للسودان هى اللغة العربية ، بينما تكون الانجليزية هى اللغة الرئيسية فى الاقليم الجنوبى ؟ وفى اطار هذا التلفيق التوفيقى كيف تفهم كلمات : القومية والرسمية والرئيسية ، بين دعاة القومية والعقائدية ؟ وما موقف العقائديين من أبناء جنوب السودان ومناصريهم من الشماليين فى ذلك ؟؟؟

ان الموقف يحفه كثير من الغموض ، ولكن ربما يوضحه ما يأتى :

١ ـ هناك من يدعو الى جعل السواحلية لغة قومية فى جنوب السودان ، وفى اعتقاده أن اتفاقية أديس أبابا ، قد حلت قضية الحكم ، ولكن بقيت القضية الثقافية بدون حل ، وان حلها رهن بجعل لغة أفريقية متطورة لغة قومية ، وتلك هى السواحلية[١]

وللانسان أن يتساءل : هل كانت السواحلية من لغات جنوب السودان ؟ اذ أنها فى واقع الأمر ليست لها أية جذور تاريخية متأصلة . . . بل وجدت فى فترة قريبة بين بعض الجماعات بعد تدفق اللاجئين نتيجة للحروب والاضطرابات الداخلية فى الكنغو ويوغندا والضغط السياسى فى كينيا ، كما أن الأوضاع الأمنية غير المستقرة فى جنوب السودان والخلاف السياسى بين الشمال والجنوب ، قد دفع بأعداد من الجنوبيين الى أقطار شرقى افريقيا ، وتلقوا تعليمهم هناك ، وتحدثوا بالسواحلية والانجليزية ، وحينما عادوا الى السودان بعد اتفاقية أديس أبابا حملوا معهم السواحلية ، ومنهم الجيل الذى بدأ ينادى بقومية مستقلة للجنوب ، ولم يرتض بالافريقية التى يمكن أن تشمل الجنوب والشمال معا .

لقد تأثر أنصار جَنْوَبَة القومية السودانية بالتوجه السواحلى الاشتراكى الجارف فى تنزانيا ، وبأفكار جوليوس نايريرى ، الذى حارب اللغة والثقافة الاسلامية حربا لا هوادة فيها بدءا بمذبحة زنجبار ، ثم بفرض السواحلية والتعاليم الاشتراكية الصينية ، وقد ساعد المد التبشيرى الكنسى فى جميع أرجاء جمهوريته الفاضلة !

٢ ـ ان باعث الدعوة الى جنوبه القومية السودانية ، تخوف البعض من توجه جماعات الشمال نحو الهوية العربية ، بينما القبائل الجنوبية ذات هوية اجتماعية افريقية زنجية ، وأن السواحلية يمكن تعلمها فى ثلاثة أشهر فقط ، بخلاف العربية التى لم

تختلط باللهجات المحلية فى الجنوب فالسواحلية على زعمهم لا تؤثر فى ثقافات الجنوب ، بل تحفظها لهم فقط ، مثلما فعلت للقبائل الافريقية فى الأقطار التى تتحدثها أما العربية فتؤثر فى هذه الثقافات كثيرا . . . وهذا أمر طبيعى ونتيجة حتمية ، لأن للعربية تراثها العقدى والحضارى والأدبى ، وليس كذلك السواحلية .

ان المتعلمين الجنوبيين يريدون الانسلاخ عن التأثير العربى والاسلامى لكل الوسائل سواء أكانت موضوعية أم لا . . . . فكيف يتسنى لمفكر أو مثقف أن يرتضى لغة لا لشىء سوى أنها لا تؤثر على ثقافة مجتمعه ، اذا فما فائدة لغة لا ثقافة لها . . . ؟ وكيف يستقيم ذلك مع رأى آخر مناهض للعربية أيضا ، ويفضل السواحليةلأنها لغة افريقية متطورة ومثالية لتطوير الثقافات الافريقية ومنتشرة فى افريقيا وفى اقليم الاستوائية وسهلة التعليم . . . ؟ أيستقيم هذا فى ضوء مقومات القومية ؟ أكانت الاستوائية هى الجنوب كلها ؟ وما هو الموقف مع أعالى النيل وبحر الغزال من تلك الخيارات الصفوية العقائدية ؟؟؟

اذا كان ذلك هو رأى فئة من المثقفين الجنوبيين العقائديين فان هناك فئة أخرى ترى غيره ، وتميل الى اختيار احدى اللغات المحلية أو عدد منها كالدينكا والباريا والزاندى ، لتكون لغة قومية للأقليم الجنوبى ، وفق نتائج البحث العلمى ، ثم يسعى القائمون بالأمر الى تطويرها ، لتكون لخدمة المصالح القومية ، ويقرر أنصار هذا الاتجاه أن الدعوة للغة قومية محلية فى هذه المرحلة الراهنة سابقة لأوانها ، « لأننا لسنا أمة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة » ويرون أن المخرج فى الوقت الراهن يكمن فى الاقتناع باللغة العربية المحلية أى عربية جوبا Juba Arabic وهى عامل موحد قوى فى الجنوب .

ان جنوب السودان يضم عشرات اللغات ومئات اللهجات واللغوات ولن تجرؤ ، جماعة أن تبرهن على أن لغتها أكثر قابلية من غيرها ، لتصبح لغة قومية للاقليم ، لذا يحرص مثقفو الجنوب على نقل الحوار الى مستوى غير المستوى القبلى الداخلى حتى يتفادوا الاختلاف بين جماعات الجنوب نفسها وهذا المستوى البديل هو السواحلية بتراثها الاشتراكى وتجاربها النايريرية حيث أصبحت تمثل رمزا للنجاح الذى تطمح اليه الفئة الاشتراكية وصارت عنصرا أساسيا فى التكوين الايديولوجى والسياسى لمجموعة المثقفين الجنوبيين الذين يعارضون التعريب والعربية فى جوهرها[٢] .

وتتمثل الجوانب الايديولوجية اللغوية المعارضة للتعريب والعربية فى جنوب السودان فى عدة أمور منها : ـ

أنه فى ١٢ يونيو ١٩٧٤ م تقدم عضو بمجلس الشعب الاقليمى فى الجنوب باقتراح يتضمن أن يعاد ادخال اللغة الانجليزية لغة للتدريس فى المؤسسات التعليمية بالاقليم بابتداءا من العام الدراسى ٧٤ / ١٩٧٥ م وقد اعتمد القرار على أن الجنوبيين قد قرروا فى أديس أبابا جعل الانجليزية لغة رئيسية وان ايقاف العربية لا يتم الا باعادة الانجليزية ، وأن العربية هى احدى الأسباب الرئيسية لمشكلة الجنوب ، وان الانجليزية هى أسهل طريق الى تنمية سريعة ومستوى تعليمى جيد ، كما أنها اداة للبحث العلمى ، ولها دور كبير فى تيسير التواصل بين الجنوب والدول الأفريقية المجاورة ، وقد انطلق ذلك الاقتراح من الدوافع الآتية(٣) : -

١ - ايجاد هوية جنوبية فى وجه الاكتساح العربى ، عرقيا وثقافيا ولغويا ودينيا .

٢ - اعادة تعريف الخصائص والرموز الثقافية ، وذلك ببعث اللهجات المحلية وتشجيعها ، وتطويرها الى مستوى اللغات القومية والحفاظ على تراثها .

٣ - رفض الأسلمة : حيث استلهموا الواقع التاريخى بين الشمال والجنوب ، مركزين على المحتوى التناقضى لأبعاده الثقافية ، حيث العروبة ضد الافريقانية والاسلام ضد المسيحية والديانات الافريقية ، واللغة العربية ضد اللغات المحلية والانجليزية .

لقد ارتبطت العربية والتعريب فى جنوب السودان بدلالات سلبية ، وأصبحت لصيقة بالحقل الدلالى الذى يشتمل على مفاهيم مثل : الهيمنة ، والامبريالية والاسترقاق ، والاستعمار ، والأسلمة بالقوة ، والافقار الثقافى . . . .

وقد استغل الاستعمار ذلك التناقض المتعمد ، وقدم من خلاله تلك السلبيات فى اطار نصائحى اشفاقى باسم المناهج التعليمية والأوعية الثقافية والنظريات السياسية ، فتقبلها معظم الجنوبيين بمختلف اتجاهاتهم الكنسية والاشتراكية والوثنية ، وأصبحوا يقتنصون بعض الوقائع ويقيمون عليها الحجج والبراهين .

ولعل اللغة العربية لم تجابه عبر تاريخها الطويل فى السودان بمثل ما قوبلت به من هجوم متعاضد من كل الاتجاهات غير الاسلامية ، بعد النظام المايوى الذى حاول منذ ١٩٦٩ م أن يسكت المعارضين السياسيين الجنوبيين لتنازلات عقدية ولغوية وحضارية ، واكتسبت تلك التنازلات صفة الأصالة والديمومة بحيث تنبنى عليها المطالب المستجدة ، وكانت أن صارت فيا بعد موانع موضوعية للتعريب فى جنوب السودان . ولقد ساعد النظام المايوى الرخو عقيدة وثقافة ولغة على أمور من بينها : -

١ ـ التوزيع غير المتوازى للأرصدة اللغوية ، وتباين معدلات انتشار اللغة العربية .

٢ ـ السياسة اللغوية التى تؤمن وضع اللغة الانجليزية بنص القانون ، حيث اتفاقية أديس أبابا ١٩٧٣ وقرار المجلس الاقليمى العالى فى ١٩٧٥ م ، حول السياسة اللغوية التعليمية .

٣ ـ الأوضاع المتردية فى النظام التعليمى ، حيث غياب المعلمين واضرابهم وفقدان الكتاب المدرسى ، وهروب الطلاب من مدارسهم ، والانضمام الى جماعات المتمردين ، وهنا كانت الفرصة متاحة لمعلمى الانجليزية من اللاجئين واليوغنديين ، ومتطوعى المجلس البريطانى .

٤ ـ ممارسات المعهد الصيفى للدراسات اللسانية بالجنوب ، حيث يقوم هذا المعهد بكتابة اللغات المحلية بالحرف اللاتينى ، وتشجيع تعليم اللغات المحلية فى المدارس الريفية ، وانتاج مواد دراسية لمنهج جنوبى خالص من الثقافة العربية الاسلامية ، دون استخدام اللغة العربية ، وهذا يعكس ارتدادا منهجيا وتعليميا ولغويا للواقع الذى كان موجودا قبل اتفاقية أديس أبابا فى الحبشة أيام الامبراطور هيلاسلاسى .

التعريب فى السوادن :

لم يكن قبل فترة المهدية حكم سودانى قد بسط نفوذه وسيطرته على ما يعرف بسودان اليوم بحدوده الجغرافية ، ولكن بعد انتصارات الدعوة المهدية التى على أثرها تم انشاء الدولة وعاصمته أم درمان فى أيام الخليفة عبد الله ، بدأت تستخدم العربية فى جميع مداولاتها العامة والخاصة ولقد ثبت للمهتمين بوثائق المهدية أن اللغة العربية هى الوحيدة فى المجالات الرسمية والشعبية ، بالاضافة الى وثائق بالانجليزية والفرنسية والأمهرية مترجمة عن الأصل العربى .

ويمتاز الأسلوب اللغوى لتلك الفترة بالوضوح والخلو من أساليب التكلف والزينة ، وقد تأثرت بعض الاساليب بالتراث التركى الذى كان سائدا من قبل .

ثم جاء العهد الاستعمارى ١٨٩٨ مزيجا فى لغته بالعربية المتمثلة فى مصر ، والانجليزية لغة السيادة ، لا سيما بعد أن استتب الأمر للنظام الجديد ، وكان أول ما فكر فيه قائد الفتح الانجليزى اللورد كتشنر تخليد ذكرى سلفه غردون باشا الذى لقى حتفه على أسنة الرماح المهدية فأنشئت كلية غردون التذكارية عام ١٨٩٩ ، أى بعد عام واحد من الاستعمار وكان الدافع الى ذلك حاجة النظام لعدد من الموظفين يكونوا وسطاء بين الحاكم الاجنبى وفئات الشعب بمختلف توجهاته نحو الاستعمار والمهدية(١) ، وقد حدد الاستعمار أهداف التعليم فى تلك الفترة بثلاث نقاط : -

١ - تخريج فئة من المهنيين ذوى التأهيل الفنى .

٢ - بث المعرفة الضرورية بين جمهور الناس بالقدر الذى يساعدهم على تفهم طبيعة الحكم الجديد ونواياه فى تصريف شئون الناس والبلاد .

٣ - خلق كادر من الموظفين لتحمل بعض مهام الخدمة المدنية ، ومن ثم كان من الضرورى لدى منفذى تلك السياسة أن تكون اللغة الانجليزية وسيلة لتلك المعارف الجديدة فى مؤسسات التعليم .

ولم يكن الاقبال كبيرا فى بادىء الأمر على ذلك النمط من التعليم لشكوك جيل ذلك العهد فى هوية التعليم الاستعمارى ، وللاختلاف الدينى بين واضعى المناهج التعليمية

ورجال الدين انذاك ، الأمر الذى دفع باللورد كرومر أن يزور السودان ويجتمع بأعيان البلد فى أم درمان ويوضح لهم عدم المساس بالشعائر الاسلامية ، وأكد لهم أيضا أن هذا النظام الجديد وتعليمه لا علاقة له بالمسائل الدينية . .

وكان من توجيهات اللورد كرومر ألا يكون هناك تعليم للغة الانجليزية فى المرحلة الأولية الا لغرض ضرورى جدا ، وذلك تفاديا لحساسيات السودانيين أو ربما يكون تخوفه ناتجا عما يمكن أن تسببه معرفة السودانيين للغة الانجليزية من عواقب وخيمة . وقد كتب السير جيمس كرى مدير المعارف آنذاك بنجاح التجربة الى اللورد كرومر(٢) .

معهد أم درمان العلمى

فى مقابل التعليم الاستعمارى بمناهجه الحديثة ، نشأ تعليم دينى عربى مواز له ، اذ قد عين السكرتير القضائى عام ١٩٠١ م ، بعد عامين من انشاء كلية غردون ، لجنة من رئيس وستة من العلماء لتدريس العلم فى جامع أم درمان(٣) . وكان الهدف من وراء ذلك ذر الرماد على عيون المتمسكين بدينهم ولغتهم العربية ، والاشراف بطريق غير مباشر على الجماعات المناهضة من رجال الدين وتجميد نشاطهم فى الاطار الوظيفى ، اذ كانوا يدرسون الدين الاسلامى وفق اللائحة التى صدرت بموافقة السكرتير القضائى وهى تحدد الأغراض فيما يلى :(٤) ـ

« القيام بتعليم الشريعة الاسلامية وفهم علومها ونشرها على وجه يفيد الأمة ، وتخريج علماء يرشدونها الى طرق السعادة الصحيحة ويرفعون عنها ضرر الجهل والعقائد الفاسدة » .

وهذه الأغراض لا غبار عليها فى ظاهرها ، ولكن عبارة « على وجه يفيد الأمة » يمكن استخدامها عند الضرورة فى ايقاف كل ما هو ضد الحاكم الأجنبى ، وبالاضافة الى ذلك لم ترد أية اشارة الى اللغة العربية كما أن الذين عينوا فى المعهد العلمى لم يكونوا فى مجملهم من المهتمين بالعربية كلغة حياة .

ثم جاء عهد من التطور والتحديث للمعهد ١٩٤٣ م وذلك بتعيين قاضيين متقاعدين وشيخ من الأزهر(٥) ، ولأول مرة يعين فى تاريخ المعهد مدرس لآداب اللغة العربية فى سنة ١٩٤٥ م .

وفى ضوء هذا الواقع التعليمى لمعهد أم درمان العلمى لا يتوقع أحد أن تعطى اللغة

العربية قيادها للعلوم المختلفة ، ولا أن تثرى الحياة الاجتماعية والفكرية بمختلف مجالاتها .

ومن الملاحظ فى تلك الفترة السابقة عناية المستعمر بلغة التخاطب العربية بين الموظفين الانجليز ، اذ كانوا يتلقون فترات تعليمية بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية فى لندن ، كما كانوا يأخذون فترات تدريبية أخرى فى اللهجة السودانية العربية ، كل هذا قبل مباشرتهم للأعمال الادارية والتعليمية فى مديريات السودان المختلفة(٦) .

تأهيل السودانيين لتدريس اللغة العربية فى عهد الاستعمار

ان فداحة الموقف بالنسبة للغة العربية فى العهد الاستعمارى ، لم تكن فى السياسة الموضوعة تجاهها فحسب بل فى الحاجة الماسة الى من يقومون بتدريس العربية من السودانيين ، وقد نبه الغيورون على العربية الى ضرورة تلافى الآثار المترتبة على ذلك ، فأوصت اللجنة التعليمية المكونة من المجلس الاستشارى لشمال السودان فى ١٩٤٧ م ، أن تنشأ كلية للغة العربية ضمن كليات الجامعة لاعداد المدرسين ذوى الاختصاص لمراحل التعليم فوق الأولية ، تكون أشبه بكلية دار العلوم فى مصر(٧) .

وقد جاء الاستاذ على الجارم لمثل ذلك الغرض بدعوة من وزارة المعارف لاصلاح منهج اللغة العربية فى المدارس العليا ، وأعد تقريره فى ١٦ مايو ١٩٣٧ م محتويا اقتراحات بشأن فروع المادة وساعات درسها ، وكان من نتائج تلك التوصيات والتعديلات المتعددة فى اللغة العربية ونظمها ، تخرج الدفعة الثانية من مدرسى اللغات الذين كانت اللغتان العربية والانجليزية فروعا أساسية لدراستهم(٨) . والجدير بالذكر أن اللغة العربية طيلة هذه الفترة كانت تدرس بحسبانها مادة وليست لغة دراسة ، وقد أكدت اللجنة الدولية للتعليم الثانوى فى السودان فى تقريرها عام ١٩٥٥ م على أن من : العادة فى جميع أنحاء العالم أن يعلم الناس بلغتهم القومية ، ومتى ما حدث انحراف عن تلك القاعدة العامة ، فلا بد أن يكون له ما يبرره(٩) .

وقد حدث الانحراف بالفعل عن تلك القاعدة بمبررات من بينها :

١ ـ أن اللغة الانجليزية كانت اللغة الرسمية لحكومة السودان بعد الفتح الانجليزى المصرى .

٢ ـ أن أكثر مدرسي الثانوية وخاصة في السنوات الأخيرة كانوا من الانجليز .
٣ ـ أن التعليم عامة والثانوى منه بوجه خاص ، كان يهدف الى اعداد صغار الموظفين للعمل فى مكاتب الحكومة ، وصار فيما بعد وسيلة لدخول الكلية الجامعية .

وكان من جراء ذلك وسواه ، كوضع جنوب السودان ، والصلات القوية بين التعليم فى السودان ، وبين المعاهد الانجليزية كجامعتى لندن وكمبردج ، أن أعتبرت اللغة العربية لغة غير مناسبة كوسيلة للتعليم فى المستوى الثانوى لأنها تفقد المصطلحات العلمية ، ولا يمكن اعداد الكتب المدرسية باللغة العربية ، بالاضافة الى قلة المراجع ، وقد أشار تقرير اللجنة الدولية الى أنه قد ثبت بالتجربة فى الاقطار الأخرى التى جعلت اللغة العربية لغتها الرسمية أن ليس هناك ما يبرر القول أن اللغة العربية تعوزها الاصطلاحات الفنية أو الكتب المدرسية[١٠] .

لقد بنيت السياسة التعليمية الاستعمارية فى السودان على عدم تعميم المدارس ، اذ أنه حتى عام ٩٥٠ كان هناك مدرستان ثانويتان فقط ، بالاضافة الى مدرسة ثالثة ناشئة .

١٩٥٥ ـ ١٩٦٥

كان كل شىء فيما سبق يسير على هدى الاستعمار ومناهجه ، وبين فترة وأخرى يطل من ينبه الى ضرورة العناية باللغة العربية ، ويطالب بتوسيع قاعدة التعليم ، واصلاح المناهج ، وفى عام ١٩٥٥ م مع تباشير الاستقلال ، استدعت حكومة السودان لجنة دولية لمراجعة الوضع التعليمى فى المرحلة الثانوية[١١] .

وبعد البحث المستفيض توصلت اللجنة الى توصية بضرورة التعريب ، وكان بين ما جاء بالتقرير[١٢] :
٢ ـ أن تكون فترة خمس سنوات حدا أقصى لإتمام التغيير اللغوى على أن تبدأ من العام الدراسى ٥٦ / ١٩٥٧ م ، وفى أثناء ذلك يتم اختيار الكتب العربية الصالحة فى العلوم المختلفة لاستعمالها فى المدارس ، ويتم التعاقد بأقل الشروط للخدمة مع مدرسين يتكلمون اللغة العربية ، من دول عربية وذلك لتدريس المواد المختلفة على أن يكونوا أكفاء ذوى خبرة بالموضوع على أن تنفذ الخطة كلها فى عام ١٩٦٠ م .

وطبقا لقرار اللجنة الدولية للتعريب بدأت بعض المدارس تجربة التعريب ومن بينها مدرسة مدنى الثانوية ، رغم اعتراضات بعض المدرسين ، وهم القادمون من الشام ومصر يومذاك[١٣] .

لقد بدأ تعريب التعليم فى المرحلة الثانوية بمادة التاريخ ٦٠ / ١٩٦١ م ـ أما بقية المواد فكان تعريبها ابتداءا من ١٩٦٥ م . ان اللغة الانجليزية فى هذه الفترة ، لم تحدث لها أية معوقات منهجية بسبب الالتفات البسيط الى اللغة العربية ، اذ لم تتأثر فى طرق تدريسها ، أو فى عدد ساعاتها بل كان العكس هو الصحيح حينما أدخلت فى مناهج المعاهد الدينية ، وتنبه عدد من السودانيين الذين تخلفوا عن التعليم الى ضرورة تعليمها ، فازداد ، بذلك عدد المقبلين عليها . ان قوة العربية وعظمتها ، وجمال عباراتها وسحر ايقاعها وغنى مفرداتها ، لم تتضح خلال هذه الفترة ، الا فى شعر الشعراء ، وأحاديث الخطباء السياسيين ، أما كونها عنصرا مهما فى التعليم أو فى دواوين الحكومة والمؤسسات فشىء لا يذكر . . . .

ان الموقف هنا من بعض جوانبه لا يختلف عن مواقف الدول الافريقية التى خرجت بالاستقلال عن الكابوس الاستعمارى ، يستوى فى ذلك بلدان افريقيا العربية والزنجية ، وإن كان وضع السودان أفضل بكثير من بعض الدول فيما يتصل بالمشكل اللغوى .

ان أية لغة لن تجد الحياة الا اذا وجدت القوة السياسية التى تدعمها وتدفع بها الى الامام ، ولا تكتفى باتخاذها لغة لمقوماتها الدينية فقط . . .

١٩٦٥ ـ ١٩٧٥ م

شهد السودان بعد استقلاله من الحكم الثنائى عهدين عسكريين ساد فيهما جميع ألوان الفردية والطغيان ، جاء الأول بعد عامين من الحكم الديمقراطى ودام ست سنوات عرفت فى القاموس السياسى بالسنوات العجاف من حيث الحريات العامة ، ولكنها كانت عهد رخاء لا ينكره من عاصروه وبعد الانتفاضة الأولى فى أكتوبر ١٩٦٤ م خرج المثقفون السودانيون بتجارب ثرة وتوجهات تحررية لا بأس بها ، فكان شعار التعريب فى مقدمة القضايا التعليمية والثقافية ، بالاضافة الى الزامية الامتحان فى مادة التربية الدينية .

وقد شهدت الفترة الأولى لحكومة اكتوبر مواقف متعددة من المد والجزر داخل مجلس الوزراء حول القضيتين السابقتين ، وفى أبريل ١٩٦٥ م انعقد مؤتمر نقابة المعلمين الثانويين الثانى بحنتوب ، وكان من بين الموضوعات التى ناقشها المؤتمرون (تعريب المواد) التى تدرس باللغة الانجليزية على أن يتحمل المعلمون أنفسهم ذلك العبء[١٤] . ولا شك أن للقرارات التى أجازها ذلك المؤتمر أثرا كبيرا فى احالة الدعوة التعريبية الى حقيقة ناجزة .

وقد أبلغ قرار سياسة التدريس باللغة العربية فى السودان التى تمت فى يوليو ١٩٦٥ الى هيئة اليونسكو فى ١٩٦٨ م وهى السنة التى دخل التعريب فيها مراحله النهائية .

لقد كان قرار التعريب خطير جدا فى الواقع بالقياس الى امكانات السودان آنذاك ، ولكن قد ذللت الصعاب ، وبدأت اللجان أعمالها ، واستمرت حتى ١٩٦٧ وكان يرأس كل لجنة أستاذ من معهد المعلمين العالى أو أحد رؤساء الشعب بوزارة المعارف ، ثم انتقلت مهمة التعريب الى قسم المناهج بالوزارة بحيث يشمل تكوين كل لجنة أعضاءا من :

١ - المعهد العالى
٢ - المناهـج
٣ - جامعة الخرطوم
٤ - جامعة القاهرة بالخرطوم أحيانا
٥ - التوجيه الفنى

وهذا التكوين يفى بغرض كل مادة لتعدد تجارب الممثلين فى اللجان .

لقد أكمل التعريب أربعة أعوام فى ١٩٦٨ م وكان من المتوقع أن تكون الامتحانات باللغة العربية ، ولكن حتى عام ١٩٧٠ يشير دليل الطالب للجلوس فى الشهادة الثانوية ، الى أن الاجابة يجب أن تكون باللغة العربية أو الانجليزية ، وربما كان السبب وراء ذلك هو الوضع اللغوى فى مدارس الجنوب .

ان تدريس مختلف المواد العلمية والأدبية باللغة العربية ، بعد أن كانت تـدرس بالانجليزية ، لم يحدث أى اضرار بتلك المواد ، بل أفادها بشهادة مـدرسى تلك المواد أنفسهم من الذين كانوا يدرسونها بالانجليزية(١٥) . وان استكمال التعريب لم يكن عائقا فى اتقان اللغة الانجليزية ، لا كما يزعمها بعض القوم ، والذين بدأوا يرجحون بالجهل حول هذا الأمر ، من واقع تجربة السلم التعليمى ١٩٧٠ م .

لقد أحدث تغيير النظام التعليمى فى السودان عام ١٩٧٠ م اضطرابا وانعدام الثقة فى مجال المناهج والمقررات ، وينبغى أن يفرق هنا بين السلم التعليمى الذى يقوم على سنوات الدراسة ومراحلها من ٤ - ٤ - ٤ الى ٦ - ٣ - ٣ فكارثة التدهور التعليمى التى يرددها البعض يرجع الى التعجل والتسرع فى وضع المناهج والمقررات والكتب الدراسية لتواكب النظام فى توجهاته وتزيح كل ما هو دينى من الاطار العام ، ولتدخل نماذج ونصوصا فى هذه العلوم الانسانية ، الشىء الذى قصم صلابة المنهج القديم الذى كان يجرب لعدة سنوات ثم يقرر على المدارس والمراحل . وقد شهدت الأعوام ٦٩ - ١٩٧٥ م عشرات التحولات الفكرية والسياسية والثقافية والاجتماعية ، وكانت وزارة التربية مرتعا خصبا لكل ذلك ، فكل وزير قد عاث فيها ما بدا له - اذ لا زادع لأى وزير الا من استوزره ، وكان يتمتع بقسط لا بأس به من عدم الادراك فى تلك الشئون التربوية والثقافية .

هوامـــش

الايديولوجية :

١ ـ افريقيا فى عصر التحول ـ لويد ـ ص ٢٩٤ .
٢ ـ نفس المرجع ص ٣١٩ .
٣ ـ تاريخ افريقيا ـ تأليف شارل أندريه جوليان ـ ص ١٦٥
٤ ـ دابنجى ستهول ـ فى القومية الافريقية ـ ص ١٥٢ ـ ١٥٣
٥ ـ افريقيا فى عصر التحول ص ٣١٢ .
٦ ـ د . ابراهيم أنيس ، فى اللغات بين القومية والعالمية ص ٦٥

الزنجية والزنوجة :

١ ـ افريقيا فى عصر التحول ص ٢٩٦
٢ ـ ملتقى الجزائر ـ المهرجان الثقافى الافريقى الثانى ص ٤٥٣ .
٣ ـ نفس المرجع ص ٣٩١ .
٤ ـ افريقيا فى عصر التحول ص ٣٠٢ .
٥ ـ ملتقى الجزائر ص ٤٠٨ من مقالة لجوزاف زاربو ـ من فولتا ـ
٦ ـ ملتقى الجزائر ص ٣٦ .

القومية :

١ ـ دابنجى ستهول فى كتابه القومية الافريقية ص ١٤٦ .
٢ ـ اللغة بين القومية والعالمية لابراهيم أنيس ص ٥١ .
٣ ـ نفس المرجع ص ١٠٢ و ١٠٤ .
٤ ـ انظر : ضحى الاسلام ج ١ ص ٤٩ للأستاذ أحمد أمين .
٥ ـ انظر فى هذا مقالة بالأهرام عدد ١٩ / ٣ / ١٩٨٥ ص ٦١ بعنوان : قبل أن تصبح اللغة العربية غريبة بيننا ـ للدكتور / حسين نصار .

القوميات والصراع اللغوى فى افريقيا :

١ ـ المخطوطات العربية والاسلامية فى شرق أفريقيا ـ للدكتور سيد حامد حريز .
٢ ـ من الحزام الحديدى الى الستار الحديدى ـ حريز ص ٢ و ٦
٣ ـ وقد اتضح لى ذلك خلال تجربتى فى المعهد الاسلامى الافريقى فى أم درمان بالسودان ٦٨ ـ ١٩٧١ م اذ أن طلاب شرق افريقيا المسلمين كانوا أبعد ما يكونوا عن التعليم النظامى الحديث .
٤ ـ من الحزام الحديدى الى الستار الحديدى ـ حريز ـ ص ١٥ و ١٦ .
٥ ـ الأستاذ حاج سيلا ، رئيس اتحاد الكتاب والصحفيين الناطقين باللغة العربية بالسنغال .
٦ ـ راجع جريدة المدينة ـ الأربعاء ٢٤ / ٧ / ١٤٠٤ هـ الملحق ص ١٢ مقالة لمحمد على القليبى .
٧ ـ نفس المرجع ، ص ١٣ ـ وصاحب ذلك الصوت هو : ردا مانى ايسيفوا
٨ ـ من الحزام الحديدى الى الستار الحديدى ـ د . حريز ص ١١ و ١٢

٩ ـ نفس المرجع ص ١٩ وكذلك انظر : الخريطة اللغوية للسودان للخليفة وحريز ص ٢٨ .
١٠ ـ الخريطة اللغوية للسودان ـ خليفة وحريز ص ٣١ و ٣٢
١١ ـ نفس المرجع ص ٣٣ و ٣٤

الصراع اللغوى بين العقائدية والقومية فى السودان :

١ ـ ضد التعريب ـ د . عشارى ـ ص ٦
٢ ـ نفس المرجع ص ١٨
٣ ـ راجع نفس المرجع ص ٢٤ و ٣١ و ٣٦ و٤٣

التعريب فى السودان

١ ـ هناك اختلاف بين السودانيين حول تقويم فترة المهدية ، ومواقف العلماء ازائها ، انظر المصادر الأولية لفترة المهدية ص ٤ ـ
٢ ـ التعريب لصلاح عمر الكارب ص ٢ .
٣ ـ المجلس الاستشارى لشمال السودان ـ الدورة السادسة ١ ـ ٦ يناير ١٩٤٧ م ص ١٣١ .
٤ ـ الدورة السادسة للمجلس الاستشارى ١٩٤٧ م ص ١٣١ ـ وقد صدرت تلك اللائحة بشكلها المتكامل فى ١٩٢٥ م
٥ ـ وهم : الشيخ أبو شامة عبد المحمود ، والشيخ أحمد اسماعيل الأزهرى والشيخ محمد المبارك عبد الله ، الذى أصبح فيما بعد شيخا للمعهد .
٦ ـ التعريب لصلاح الكارب ص ٣ .
٧ ـ محضر الدورة السابعة ص ٤٨
٨ ـ الدورة الخامسة للمجلس الاستشارى لشمال السودان أبريل ١٩٤٦ م ص ٥٣
٩ ـ تقرير اللجنة الدولية للتعليم الثانوى فى السودان ١٩٥٥ م ص ٥٨ ـ
١٠ ـ تقرير اللجنة الدولية ص ٥٩
١١ ـ وكان من بين أعضاء اللجنة : الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، والدكتور عبد العزيز السيد ، الذى أصبح أول مدير لجامعة القاهرة بالخرطوم .
١٢ ـ تقرير اللجنة الدولية لعام ١٩٥٥ م ـ الملحق الثانى ص ١٢٤ وما بعدها .
١٣ ـ هذه مقابلة كانت مع الاستاذ / هاشم ضيف الله مدير المدرسة آنذاك
١٤ ـ مجلة الخرطوم مارس ١٩٧١ م ص ٤١
١٥ ـ لقد قمت خلال عملى بوحدة البحوث التربوية فى وزارة التربية خلال ١٩٧١ ـ ١٩٧٥ باستطلاع آراء رؤساء شعب الرياضيات والعلوم والجغرافية بمدارس الخرطوم حول التعريب .

مراجع البحث

١ ـ اللغة بين القومية والعالمية ـ د . ابراهيم أنيس ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٧٠ .

٢ ـ القومية الافريقية ـ دابنجى ستهول ـ ترجمة خديجة عبد المنعم برادة ـ مراجعة د . محمد محمود الصياد ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٣ ـ افريقيا فى عصر التحول ـ ب . س . لويد ـ ترجمة شوقى جلال ـ الكويت عالم المعرفة ١٩٨٠ م .

٤ ـ تاريخ افريقيا ـ شارل أندريه جوليان ـ ترجمة طلعت عوض أباظة ـ مراجعة د . عبد المنعم ماجد ـ دار النهضة بمصر ١٩٦٨ م .

٥ ـ أفريقيا فى مفترق الطرق ـ أحمد طاهر ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٦ ـ المصادر الأولية لفترة المهدية ـ د . محمد ابراهيم أبو سليم .

٧ ـ دليل الطالب للجلوس لامتحان الشهادة الثانوية سنوات ١٩٦٧ ـ ١٩٧١ م

٨ ـ تقرير اللجنة الدولية للتعليم الثانوى فى السودان ١٩٥٥ .

٩ ـ محاضر جلسات : المجلس الاستشارى لشمال السودان . دورات ٥ ـ ٧ ـ ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ م .

١٠ ـ تقرير الاستاذ / على الجارم ١٩٣٧ م

١١ ـ الخريطة اللغوية للسودان ، ووضع اللغة العربية فيها : د . يوسف الخليفة أبو بكر ، ود . سيد حامد حريز ـ المؤتمر الأول ـ للغة العربية فى السودان ١ ـ ٦ ديسمبر ١٩٨٢ م .

١٢ ـ ضد التعريب ـ د . عشارى أحمد محمود ـ ندوة الدراسات اللغوية بالخرطوم ١٣ ـ ١٦ أكتوبر ١٩٨٤ م .

١٣ ـ المخطوطات العربية والاسلامية فى شرق أفريقيا ـ د . سيد حامد حريز ـ ندوة العلماء الأفارقة ، ومساهمتهم فى الحضارة العربية الاسلامية ـ الخرطوم يوليو ١٩٨٣ م .

١٤ ـ من الحزام الحديدى الى الستار الحديدى ـ د . سيد حامد حريز ـ ندوة الدراسات اللغوية بالخرطوم ١٣ ـ ١٦ أكتوبر ١٩٨٤ م .

١٥ ـ المهرجان الثقافى الافريقى الثانى ، ملتقى الجزائر ، ١٩٧٠ م .

فهرس